هناك

حيث يموت الجسد ويبقى المعنى

حسين ضيف الله

هناك شخصيات يذكرها التاريخ لأنها أنتصرت في معاركها، وشخصيات أخرى يذكرها لأنها هُزمت، لكن هناك قلة نادرة من البشر تجاوزت حدود النصر والهزيمة بمفهومهما الضيق، حتى تحولت إلى ضمير حي للإنسانية كلها.

هذه الشخصيات لم تعد تنتمي إلى زمانها الذي عاشت فيه، ولا إلى الأرض التي مشت عليها، بل أصبحت مُلكاً لكل إنسان يبحث عن معنى أسمى للحياة.

من بين هذه الشخصيات يقف الإمام الحسين بن علي، لا بوصفه قائداً لمعركة عسكرية حدثت في صحراء كربلاء قبل قرون طويلة، ولا بأعتباره رمزاً لطائفة أو جماعة من المسلمين فحسب، بل يبرز كصورة واضحة للإنسان عندما ينتصر على خوفه وطمعه، ويتمسك بالحق مهما كان الثمن لذلك التمسك.

منذ سنوات طويلة وأنا أقرأ عن الإمام الحسين، وأستمع إلى ما يُقال في الخُطب، وأراجع مدونات التاريخ والسير ذات اليمين وذات الشمال، وكلما ظننت أنني أقتربت من فهم كربلاء وأستيعاب تفاصيلها، أكتشفت أنني لم أصل إلا إلى عتبة الباب، فكربلاء من تلك القضايا الممتدة التي لا تنتهي بأنتهاء القراءة الأولى، بل إن كل قراءة تفتح العقل على أفكار وتأملات جديدة.

لم يكن الدافع وراء كتابة هذا المؤلف أن ما كُتب عن الإمام الحسين قليل أو غير كاف، فما سطرته الأقلام عبر القرون

كثير جداً ويصعب الإحاطة به، لكنني كنت أشعر دائماً بوجود فجوة، فكربلاء لا تزال تُقرأ في الغالب كحدث تاريخي جرى وأنقضى، أو كقضية عقائدية تخضع للبحث المذهبي، بينما أراها أنا قبل ذلك كله مدرسة متكاملة لفهم النفس البشرية.

لذلك لم أرد إعادة سرد الوقائع وترتيب الأحداث التي قام بها المؤرخون خير قيام، ولم أرد الدخول في المسائل العقائدية والخلافية التي أفنى العلماء أعمارهم في دراستها، إنما أردت أن أقف أمام كربلاء وقفة إنسان بسيط يحاول الفهم.

إنسان يسأل نفسه بصدق: لماذا بقيت هذه الواقعة تحديداً حية في ضمير البشر؟ بينما إندثرت آلاف المعارك التي كانت أكبر منها حجماً وجيوشاً وعدة وعدداً ؟ ولماذا لا يزال الناس بعد مرور كل هذه القرون يبكون رجلاً أستشهد في صحراء معزولة وبعيدة ؟ بينما نسوا أسماء ملوك وأباطرة حكموا نصف الكرة الأرضية؟

لماذا يجد الإنسان المؤمن في الحسين ما يزيد إيمانه، ويجد فيه المفكر مادة خصبة للتأمل، ويجد فيه المظلوم ملاذاً، والثائر أملاً، بل ويجد فيه حتى غير المسلم معنى حقيقياً للحرية والكرامة؟

هذه الأسئلة الملحة هي التي حركت قلمي، وكانت الدافع الأساسي وراء تأليف هذا الكتاب الذي لا يحاول تقديم أدلة أو

إثباتات، فالحقائق الراسخة في الوجدان لا تحتاج إلى من يثبت وجودها، وإنما هو محاولة متواضعة وهادئة لفهم سر خلود هذه الحقائق.

إن الخطأ الأكبر الذي نرتكبه في حق هذه الذكرى هو تجميد كربلاء في حدود ذلك اليوم الواحد، والتعامل معها كمعركة عادية بدأت في الصباح وأنتهت قبل مغيب الشمس. فالمعارك العسكرية ينساها الناس وتطويها الأيام مهما كان حجمها، لكن كربلاء كانت معركة في داخل الإنسان نفسه قبل أن تكون مواجهة على الأرض.

كانت صراعاً مريراً بين الضمير والمصلحة، وبين الشجاعة والخوف، وبين الحرية والعبودية، وبين الصدق والكذب. كانت بأختصار مواجهة بين الإنسان الذي يريد أن يحافظ على إنسانيته، والإنسان الذي يبيع هذه الإنسانية من أجل منفعة عابرة، ولهذا السبب تحديداً بقيت كربلاء، لأن المبادئ والقيم العليا لا تموت أبداً.

وأكثر ما جذبني في هذه القضية هو أن الإمام الحسين لم يترك لنا نموذجاً واحداً معزولاً للخير، بل ترك خلفه مدرسة كاملة تفيض بالنماذج الإنسانية المختلفة، فبينما يمثل هو المركز الذي تجتمع فيه كل فضيلة وكمال إنساني، نجد أصحابه وأهل بيته يجسدون تلك القيم في مواقف ملموسة على أرض الواقع، كأنهم

مرايا واضحة تعكس كل واحدة منها جزءاً عميقاً من التكوين البشري.

فالحُر يعكس ذلك الصراع العنيف الذي يدور في الضمير عند لحظة الإختيار الحاسمة بين النجاة بالذات أو الإنحياز للحق.
والعباس يعكس الوفاء الإنساني في أسمى وأرقى صوره الممكنة عند مشرعة الماء.

وزينب تعكس قوة الكلمة الصادقة والصبر الشجاع في أصعب المواقف بعد غياب الناصر.

وبرير يعكس عمق البصيرة والوعي الذي لا تشوبه شائبة.
بينما يمثل هاني بن عروة ومسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر أركان قوة الإيمان الراسخة والوفاء للصداقة والعهود القديمة التي لا يغيرها الزمن.

ونرى كيف يمكن للإنسان أن يصحح مسار حياته كلها بقرار واحد شجاع مع زهير بن القين.

وكيف ينتصر على خوفه الطبيعي من الفقد مع عابس.
هناك أيضاً نكتشف أن الكرامة الإنسانية لا تعرف لوناً ولا نسباً عندما نتأمل موقف جون.

وتتحول براءة عبد الله الرضيع إلى حقيقة صارخة تهز وجدان البشرية وتكشف زيف التوحش وقسوته.

كأن كربلاء من خلال هذه التوليفة تريد أن تقول لكل إنسان يقرأها، أنهُ مهما كانت طبيعتك، ومهما كانت ظروفك المحيطة بك، ومهما كان عمرك أو ماضيك، فستجد في هذه الرحلة القصيرة من يشبهك، ومن يأخذ بيدك لتصل إلى الله وإلى نفسك.

أن التاريخ البشري مليء بالحروب الدامية، والكتب مزدحمة بأسماء الملوك والقادة الزائلين، ومع ذلك كله ذابت معظم تلك الوقائع الكبرى وأختفت تماماً في صفحات التاريخ.

أما كربلاء فكان أمرها مختلفاً ومدهشاً، فلم تتوقف هذه الواقعة عند حدود التدوين، ولم تحبس نفسها داخل التوثيق التاريخي الجاف، بل تحولت مع مرور الأيام إلى إحساس حي يلامس الوجدان البشري بعمق، وتجاوزت كل حدود الجغرافيا والدين والقومية.

حتى أصبحت رمزاً إنسانياً عالمياً يعرفه كل من بحث يوماً عن معنى الحرية، أو وقف في وجه الظلم، أو آمن بصدق بأن الإنسان قد يخسر حياته الجسدية في موقف ما، لكنه لا ينبغي له أبداً أن يخسر نفسه وكرامته.

وهنا تحديداً بدأت أفكر بعمق، هل السر الكامن وراء هذا الخلود يعود إلى حجم المعركة العسكري؟ كلا، فهي من الناحية العسكرية البحتة لم تكن معركة كبيرة أو جيشاً يواجه جيشاً منظماً.

وهل السر يكمن في عدد الشهداء الذين سقطوا هناك؟ لا، فقد شهد التاريخ البشري مجازر أكبر بكثير من حيث عدد الضحايا.

وهل السر يكمن فقط في أن الإمام الحسين هو حفيد رسول الله؟ وهذا الأمر يمثل جزءاً كبيراً من الحقيقة بلا شك، لكنه لا يفسر وحده كيف أستطاعت كربلاء أن تخاطب وتؤثر في من لا يؤمن بالإسلام أصلاً.

إذن أين يكمن السر الحقيقي؟

بعد فترة طويلة من التأمل والمراجعة، وصلت إلى قناعة راسخة، ربما تكون هي الفكرة الأساسية والمحور الذي يدور حوله هذا الكتاب كله.
إن كربلاء لم تُخلد في الضمير لمجرد أنها كانت معركة دموية راح ضحيتها آل بيت النبوة الأطهار وأصحابهم بأبشع صورة يمكن تخيلها، بل لأنها في حقيقتها كشفت جوهر الإنسان، ووضعت النفس البشرية بكل تفاصيلها أمام مرآة صادقة لا تكذب ولا تجامل.

فرأينا في تلك الواقعة الإنسان وهو يبلغ أعلى درجات الرحمة والسمو الإنساني، ورأيناه في الجانب المقابل وهو يبلغ أقصى درجات القسوة والتوحش.

رأيناه وهو ينتصر على ذاته ومخاوفه، ورأيناه وهو يستسلم لشهواته الدنيوية العابرة ويبيع ضميره من أجل مكسب زائل، ورأيناه أيضاً وهو يشتري الحقيقة بدمه وروحه، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجمع طبيعة الإنسان المتناقضة كلها في يوم واحد وفي بقعة واحدة، حتى تبقى الأجيال المتعاقبة تنظر إلى مرايا ذلك اليوم، فترى نفسها ومواقفها فيه بوضوح.

ولهذا السبب أعتقد أن أكبر خطأ فكري يمكن أن نقع فيه كقراء وباحثين هو أن نقرأ كربلاء بعين المؤرخ المحايد وحده، فالمؤرخ بطبعه يسأل: متى وقعت الأحداث؟ وأين وقعت؟ ومن حضرها من الشخصيات؟ لكن الإنسان يحتاج إلى أسئلة أخرى تماماً، مثل لماذا بقيت هذه الذكرى حية؟ وماذا تريد مني أنا شخصياً، بعد كل هذه القرون؟

إنني لا أريد من خلال فصول هذا الكتاب أن أزيد من معلومات القارئ التاريخية فقط، فالمعلومات الجافة قد تُنسى مع الوقت، لكنني أريد بصدق أن يُغير القارئ طريقة نظرته إلى نفسه وإلى قراراته اليومية، لأن الإنسان إذا خرج من قراءة هذا الكتاب وهو يحفظ مجرد أسماء الشخصيات فقد إستفاد قليلاً، أما إذا خرج وهو يعرف خبايا نفسه أكثر، ويفهم صراعاته الداخلية

بشكل أوضح، فقد حقق الكتاب غايته الأساسية التي كُتب من أجلها.

إن للكتب في هذا العالم أنواعاً كثيرة، لكن برأيي أكثرها تأثيراً في حياة البشر نوعان، كتب تخبرك بوضوح بما حدث في الماضي، وكتب أخرى تجعلك ترى وتراقب ما يحدث في داخلك أنت من صراعات، وأنا أتمنى من كل قلبي أن يكون هذا الكتاب من النوع الثاني.

ولهذا السبب لن أطلب من القارئ أن ينظر إلى كربلاء بوصفها أرضاً بعيدة تقع في العراق، بل سأدعوه بكل صدق إلى أن ينظر إليها بوصفها حالة إنسانية متكررة تحدث كل يوم في حياتنا.

فكم من إنسان يقف اليوم حائراً بين نداء الحق وإغراء المصلحة الشخصية، تماماً كما وقف الحر بن يزيد الرياحي في لحظته الحاسمة.

وكم من إنسان يُطلب منه في مواقف الحياة اليومية أن يختار بين راحته ومكتسباته، وبين وفائه لمبادئه وأصدقائه، تماماً كما أختار العباس بن علي.

وكم من إنسان يحمل رسالة صادقة وفكرة نبيلة، ثم يُخذل في منتصف الطريق من أقرب الناس إليه، تماماً كما حدث لمسلم بن عقيل.

وكم من إنسان يعرف الحق جيداً لكنه يؤجل الإنحياز إليه والوقوف معه حتى يكاد يفوته الوقت، تماماً كما حدث لزهير بن القين قبل لقائه التاريخي بالحسين.
وكم من إنسان يخاف في حياته أن يقول كلمة الحق لأن ثمنها باهظ ومخيف، بينما يذكره موقف عابس أن أكثر السجون قسوة على وجه الأرض هو سجن الخوف الداخلي.

وكم من إنسان لا يزال يقيم البشر بناء على ألوانهم وأصولهم العرقية، بينما يقف جون في كربلاء شاهداً حياً على أن الكرامة الإنسانية لا لون لها ولا عرق.

وكم من طفل بريء في هذا العالم يُقتل اليوم بلا ذنب في الحروب والصراعات، فيعيد إلى الأذهان صورة عبد الله الرضيع الصارخة، ليذكرنا جميعاً بأن براءة الأطفال لا ينبغي أبداً أن تكون وقوداً لحروب الكبار وطموحاتهم السياسية.

إن كربلاء لم تنته أبداً، لأن الإنسان نفسه لم يتغير منذ ذلك الوقت، حيث انهارت ممالك، وظهرت أمبراطوريات، وتطورت الآلات والأسلحة بشكل رهيب، لكن القلب الإنساني

ما زال يعيش الصراع نفسه، إنه الصراع الأزلي بين ما يمليه الضمير الحي، وبين ما تمليه المصلحة الشخصية الضيقة.
ولهذا فإن كل واحد منا، في حياته اليومية، يحمل كربلاءه الخاصة، وكل يوم يختار الإنسان، من حيث يشعر أو لا يشعر، في أي صف يقف وفي أي جبهة يضع نفسه.

وحين وصلت في تفكيري إلى هذه الفكرة، أدركت أن الطريق الحقيقي إلى فهم الإمام الحسين لا يبدأ بدراسة شخصية الإمام الحسين وحده، بل يبدأ أيضاً بفهم هؤلاء الرجال والنساء العظام الذين صنعهم الحسين ورباهم على يديه.

فكل واحد من هؤلاء كان يمثل قيمة إنسانية تمشي على الأرض، وكلما أقتربت من تفاصيل سيرة أحدهم، شعرت تلقائياً أنني أقترب خطوة إضافية نحو فهم ذلك المعلم العظيم الذي رباهم وصقل نفوسهم.

ولم أكن أعلم وأنا أبدأ هذا البحث، أن أول من سيقودني إلى هذا السؤال الجوهري، هو رجل لم يكن واقفاً بجسده في أرض كربلاء يوم العاشر من المحرم، بل كان شجاعاً سار يحمل الرسالة والعهد إلى الكوفة، وهو يعلم تماماً في أعماقه أن الطريق الصعب الذي سلكه قد لا يعود منه حياً أبداً، إنهُ

مسلم بن عقيل الهاشمي

لم يسبق مسلم بن عقيل عليه السلام الإمام الحسين إلى الكوفة مصادفة، فالنهج الحسيني بدأ بالكلمة قبل المواجهة، وبإقامة الحجة قبل خوض القتال، وهذا السلوك يوضح أن الكلمة هي السبيل الأول للدعوة، وتقديم الحكمة يأتي قبل كل شيء آخر.

وكان من الممكن جداً أن يبدأ كل شيء بصوت المواجهة وصليل السيوف، لكن الحسين أختار بوعي أن يبدأ مسيرته بصوت إنسان يخاطب إنساناً، لأجل هذا أرسل مسلماً إلى الكوفة ليستمع إلى الناس عن قرب، ويعرف مدى صدقهم من ترددهم، ويمنحهم فرصة حقيقية وأختياراً حراً قبل أن تفرض عليهم الأحداث، ولم يرسله على الإطلاق لإعلان الحرب أو سفك الدماء.

والقائد الحقيقي لا يبدأ مسيرته بإجبار الناس على قبول رأيه، بل يبدأ بفتح باب الحوار معهم، والحوار هنا ليس علامة ضعف أو تردد، وإنما هو علامة ثقة بالنفس وبالفكرة، فالذي يثق بنقاء فكرته لا يخاف أبداً من عرضها على الآخرين ومناقشتها، أما الذي يخشى الحوار، فهو يخشى في الغالب أن تنكشف فكرته أمام الحقيقة، لهذا السبب كانت الكلمة الصادقة هي أول الطريق، ولعلها ستبقى آخر ما يتبقى في هذا الوجود بعد إنتهاء كل طريق.

وهذا الرجل الشجاع الذي تقدم أول الطريق، عرف منذ اللحظة الأولى أن الرسالات الحقيقية لا تقاس بما تحققه من إنتصار مادي سريع، وإنما تقاس بما يقدمه أصحابها من صدق وثبات.

وكثيراً ما يُختزل مسلم في أذهان البعض بأنه مجرد سفير عادي نقل رسالة مكتوبة، ثم أنتهت قصته بالشهادة، لكنني كلما تأملت خطوته الأولى في الكوفة، شعرت أن هذه القراءة تظلمه كثيراً، فمسلم كان أول من عاش مخاض كربلاء وآلامها قبل أن تبدأ معركتها على الأرض، ولم يخرج بجيش جرار أو قوة عسكرية كما يفعل طلاب السلطة، بل جاء وحيداً حاملاً كلمته وثقته، فالكلمة كانت دائماً هي البداية والأساس قبل أن يصبح السيف آخر الخيارات الصعبة، وهذا دليل على أن الإمام الحسين جاء طالباً للإصلاح السلمي أولاً وقبل كل شيء.

أستقبلت الكوفة مسلماً في بادئ الأمر بحفاوة كبيرة، وكانت البيعة تتسع يوماً بعد يوم، والوجوه تبتسم له، والوعود القبلية كثُرت، حتى بدا للمراقب وكأن الأمور تسير تماماً إلى ما كان يرجوه الحسين.

وكان مسلم لو نظر إلى الأمور بعين المصلحة المؤقتة وحدها، أن يطمئن ويهدأ، فكل الظواهر الخارجية كانت تبدو في صالحه، لكن التجارب القاسية تُعلمنا دائماً أن أزدحام الناس حول الفكرة في البدايات لا يعني أبداً أنهم سيبقون معها حين تصبح التكلفة باهظة،

فالناس بطبعهم يحبون الحق ويدعمونه ما دام لا يطالبهم بتضحية، أما إذا طلب منهم ثمناً، بدأ كل واحد منهم يبحث عن عذر ينجو به، وهنا تحديداً بدأ الإمتحان الحقيقي لمسلم وأهل الكوفة.

وقد عجز عبيد الله بن زياد عن الوصول إلى مسلم بقوة السلاح في بداية الأمر وهو في دار هاني بن عروة، ذلك الرجل النبيل الذي فتح بيته حامياً ومسانداً لمسلم في ظروف عصيبة ومخيفة، فلجأ إبن زياد إلى وسيلة خبيثة يعرفها الطغاة، حيث أرسل رجلاً يحمل مالاً كثيراً، وكان أسمه معقل.

تظاهر معقل بأنه رجل محب وموالٍ للحسين وقضيته، وجاء بوجه مطمئن ولسان لين، مدعياً أنه يريد تقديم هذا المال نصرة للحق، ونجح معقل في التسلل داخل الصفوف لأن قلوب مسلم وأصحابه كانت نقية تعيش بالفطرة السليمة التي تجعل الأصل في الإنسان الصدق لا الخيانة، ولم يكونوا أصحاب مؤامرات أو ظنون سيئة تفتش في نوايا البشر.

إن الخيانة هي جريمة الخائن وحده، وليست خطيئة صاحب القلب النقي، ولهذا السبب لا أرى في نقاء مسلم وأصحابه سذاجة، بل أراه صورة للإنسان كما ينبغي أن يكون في أصله، لا كما فرضت عليه قسوة الحياة والواقع الصعب، لكن الشر مع ذلك لا يحتاج أحياناً إلا إلى رجل خائن واحد إذا فتح له الناس

أبواب الثقة، وكان معقل هو ذلك الرجل الذي تسبب في كشف خيوط التحرك وتضييق الخناق بعد إعتقال هاني بن عروة.

وحين بدأ الحصار يشتد، أخذ الناس يتفرقون وينفضون من حول مسلم شيئاً فشيئاً، وهذا المشهد هو من أكثر المشاهد إيلاماً في القصة كلها، ليس لأن الناس خافوا من بطش السلطة، فالخوف في النهاية غريزة طبيعية في تكوين الإنسان، ولكن لأن الخوف إذا قاد الإنسان وحده دون عقل، يستطيع أن يهزمه ويكسره قبل أن يصل إليه عدوه.

وهنا تحديداً يظهر الفارق الجوهري في شخصية مسلم بن عقيل، فلو كان أي شخص آخر مكانه في مثل تلك الظروف القاسية، وفي تلك الوحشة بعد تفرق جماعته، لربما التمس لنفسه عذراً للأنسحاب، أو التواري عن الأنظار، لكن مسلماً لم يفعل شيئاً من ذلك، بقي ثابتاً على العهد، متمسكاً برسالته حتى النهاية، ليثبت لنا عبر العصور أن الولاء الحقيقي ليس موقفاً مشروطاً بكثرة الجمع، بل هو عقيدة راسخة في أعمق نقطة من الروح.

مع حلول الليل كان مسلم بن عقيل يسير في أزقة الكوفة وحيداً لا ناصر له ولا دليل، والمدينة التي ضجت بالهتاف قبل أيام قليلة أصبحت صامتة كصمت القبور، والأبواب التي كانت مفتوحة ومُرحبة أُغلقت كلها خوفاً من الطاغية، حتى أنتهى به الطريق وهو مُتعب إلى باب بيت إمرأة بسيطة إسمها طوعة.

وكلما قرأت قصة هذه المرأة، أزددت يقيناً بأن الله سبحانه لا يحفظ المبادئ الكبرى بالعظماء وحدهم، بل أحياناً يضع سره في أضعف خلقه، إمرأة بسيطة وقفت وثبتت في وقت عجز فيه كبار الوجهاء في المدينة عن فتح أبوابهم خوفاً على مصالحهم.

خرجت طوعة من دارها فرأت رجلاً غريباً يقف وحيداً عند بابها، وعرفت منه أنه مسلم بن عقيل، وكان بإمكان هذه المرأة البسيطة أن تعتذر له وتنصرف، بل كان الإعتذار في ذلك الموقف العصيب يبدو الخيار الأكثر عقلانية، فالمدينة كلها كانت تبحث عنه، ومن يؤويه يعرض نفسه وعائلته للهلاك، لكن الإنسان لا يصبح كبيراً في ميزان القيم إلا عندما يكون ضميره أكبر من خوفه.

لأجل هذا فتحت له بابها دون تردد، وقدمت له الماء، وأدخلته بيتها لتوفر له الحماية.

إن هذا الموقف العظيم يفتح عيوننا على الدور المحوري للمرأة في بناء الرسالات الفكرية الكبيرة، فحركة التغيير الإنساني لا تكتمل أبداً إلا بشجاعة وثبات الرجل، مضافاً إليها وعي وعاطفة المرأة، ولم تكن طوعة تحمل السيف يومها، ومع ذلك أصبحت جزءاً لا يتجزأ من قصة تاريخية بقيت حية ومُلهمة عبر السنين.

وهنا نتأمل كيف أن مجرى التاريخ قد يغيره تماماً موقف صامت ونبيل في عتمة الليل، موقف لا يراه ولا يعلم به إلا الله.

إن طوعة بموقفها هذا تذكرنا بكل أم ربت أبناءها على الصدق بعيداً عن أعين الناس والمديح، وبكل زوجة وفية وقفت مساندة مع زوجها في وقت تخلى عنه الجميع، وبكل إنسان مجهول في مجتمعه الصغير أختار أن يفعل الخير ويتمسك بالأخلاق وهو يعلم يقيناً أن أحداً لن يصفق له.

فنحن في واقعنا المعاصر نبالغ كثيراً في تقدير الأضواء الزائفة والشهرة المؤقتة، وننسى في زحمة ذلك أن أكثر الأعمال عمقاً في تاريخ البشرية ولدت وعاشت في صمت مطبق.

وقد ذكرت الروايات أن مكان مسلم كُشف في النهاية للسلطة الحاكمة، وحين أحاط به الجنود المدججون بالسلاح من كل جانب، خرج إليهم وحده مقاتلاً، ليس ظناً منه أنه سينتصر عليهم عسكرياً بمفرده، بل لأنه لم يكن يعرف في حياته طريقاً آخر غير المواجهة للباطل.

وهنا نفهم أن الشجاعة الحقيقية ليست أن تضمن النتيجة لصالحك قبل أن تبدأ، بل أن تعرف واجبك الأخلاقي والإنساني ثم تقوم به على أكمل وجه.

فالإنسان لا يملك دائماً القدرة على أن يختار نوعية ما سيحدث له من ظروف، لكنه يملك دائماً الحرية الكاملة في أن يختار كيف سيواجه ما يحدث له، ولعل هذه هي أولى الدروس التربوية التي تركها لنا مسلم بن عقيل، وهي أن الوحدة الموحشة قد تتعب جسد الإنسان، لكنها لا تستطيع أبداً أن تنتزع منه كرامته وحريته ما دام قلبه مؤمناً ولم يستسلم من الداخل.

وحين أخذ مسلم أسيراً مليئاً بالجراح، بدأت القصة تكشف عن وجه آخر من وجوه النفس الإنسانية، فالسلطة الظالمة حين تعجز عن كسر الفكرة، تحاول بكل قوتها أن تكسر صاحب الفكرة ذاته، ولهذا السبب لم يكن المطلوب من مسلم أن يموت قتلاً فقط، بل كان المطلوب أن ينهزم نفسياً ويسقط كبرياؤه قبل موته ليكون عبرة لغيره.

وهناك فرق كبير بين الأمرين في ميزان الحياة، فقد يقتل الإنسان عسكرياً وتزهق روحه لكنه يبقى ثابتاً شامخاً في مبادئه، وفي المقابل قد يبقى الإنسان حياً يرزق ويمشي بين الناس، لكنه يكون في الحقيقة قد خسر نفسه وباع ضميره منذ زمن بعيد من أجل مكسب رخيص.

فلم يكن المشهد الحقيقي يجري على درج قصر الإمارة، بل كان يجري في أعماق قلب ذلك الرجل الذي أدرك بوعيه أن ساعاته الأخيرة في الدنيا قد بدأت بالفعل، ومع ذلك كله لم

يساوم ولم يتراجع خطوة واحدة، حتى لقى ربه شهيداً وحيداً غريباً.

وهنا نأتي معاً إلى جوهر القصة التي تمس واقعنا، فكم مرة يتكرر موقف مسلم بن عقيل، والخذلان المرير الذي عاشه، في تفاصيل حياتنا اليومية والعملية.

كم موظف يجلس اليوم في أروقة الدوائر يعرف يقيناً أن الفساد الإداري خطأ جسيم، لكنه يسكت ويساير الوضع القائم لمجرد أن الجميع سكتوا وساروا في هذا الطريق الملتوي.

كم طالب يرى الغش من حوله في قاعات الإمتحانات، فيقول لنفسه مستسلماً لماذا أكون أنا الوحيد الذي يرفض ويخسر الدرجات بينما ينجح الآخرون.

وكم من إنسان يتخلى اليوم عن مبدئه وأخلاقه الأصيلة، ليس بسبب أنه أصبح غير مقتنع بها، بل لأنه ببساطة لم يجد حوله من يسانده، فخاف من وحشة الوحدة ونظرات المجتمع.

إن أكثر الناس في زماننا هذا لا يغيرون مواقفهم لأنهم كرهوا الحق، بل يفعلون ذلك ببساطة لأنهم كرهوا الوحدة وخافوا من العزلة الإجتماعية، فالحق لا يترك للأنسان صديق، والحقيقة الراسخة لا تقاس أبداً بعدد من يقف معها، بل تبقى حقيقة

ناصعة وثابتة ولو لم يبق متمسكاً بها في الميدان إلا رجل واحد.

ولعل السؤال الأهم والنهائي الذي ينبغي لنا جميعاً أن نخرج به من قصة مسلم بن عقيل، ليس كيف جاء إلى الكوفة وكيف أستشهد على أرضها، بل هي تلك الأسئلة الملحة لضمائرنا.

هل سأبقى متمسكاً بنظافة كفي ومبدئي الأخلاقي إذا بقيت وحدي في ميدان العمل والوظيفة؟

وهل أملك الشجاعة الكافية لأقول كلمة الحق في طريقي إذا صمت وتواطأ الجميع من حولي؟
وهل سأفتح بابي وضميري للحق كما فعلت طوعة، في الوقت الذي تغلق فيه الدنيا والظروف الصعبة أبوابها أمام أصحاب المبادئ؟

فكل إنسان نلتقي به اليوم في صراع الحياة اليومي يدافع عن شيء ما يخصه، منهم من يدافع عن ماله، ومنهم من يدافع عن منصب مؤقت أو وجاهة إجتماعية زائلة، ولكن قليلين جداً في هذا العالم هم الذين يدافعون عن مبدأ ثابت وقيمة إنسانية حتى لو تعارض ذلك تماماً مع مصالحهم الشخصية.

هذه الأسئلة الحية المتجددة هي التي تجعل إسم مسلم بن عقيل نابضاً في وعينا الإنساني إلى اليوم، لأنه علم البشرية بدمه أن

قيمة الرسالة لا تتغير ولا تقل حتى لو تخلى عنها أهل الأرض جميعاً وتفرقوا من حولها، ومن هذا الثبات تبدأ قصة ثبات آخر، قصة رجل يقينه كانَ أكبر من عمره، إنهُ

مسلم بن عوسجه الأسدي

لم يكن مسلم بن عوسجة عليه السلام شاباً يافعاً يبحث في الحرب عن مكانة، ولا فارساً مغموراً يريد أن يكتب إسمه في سجل التاريخ.

لقد كان رجلاً تقدمت به السنين، وخاض من تجارب الحياة المتقلبة ما يجعل أكثر الناس في مثل عمره يبحثون عن الراحة والسكينة، وعن بقية عمر هادئ يقضونها بين الأهل والأولاد بعيداً عن المخاطر.

لكن قيمة الإنسان الحقيقية تقاس دائماً بالموقف الذي يختاره عندما يُدعى إلى نصرة الحق، وليس بعدد السنوات والتجارب التي خاضها في حياته، ولذلك فإن أول ما يلفت الإنتباه في شخصية هذا الشيخ الجليل، أنه لم يسمح لعمره المتقدم أو لضعف جسده أن يكونا عذراً مقنعاً للتراجع أو التخاذل.

وكم من إنسان في يومنا يقول مستسلماً لقد كبرت في السن ولم يعد هذا الأمر يعنيني.

وكم من إنسان يرى الظلم واضحاً أمامه ثم يقول ببرود دعوا الشباب يتحركون فهم أقدر على التغيير.
وكم من إنسان يعتذر عن أداء واجبه الأخلاقي بحجة أنه قدم ما عليه في الماضي ويكفيه ذلك.

لكن مسلم بن عوسجة كان يفهم معنى المسؤولية بطريقة أخرى تماماً، كان يعلم يقيناً أن الإنسان لا يمكنه أن يتقاعد عن المبادئ والقيم، فالإنسان قد يتقاعد عن عمله الوظيفي، وقد يترك تجارته الرابحة، وقد يضع سيفه جانباً عندما يضعف جسده، لكنه لا يملك أبداً أن يضع ضميره جانباً حتى يلقى الله.

ولذلك لم يكن وجوده في معسكر الإمام الحسين وجود رجل يؤدي واجباً إجتماعياً عابراً، بل كان وجود إنسان عرف الحقيقة بقلبه فلم يستطع أن يعيش بعيداً عنها دون أن ينصهر فيها بالكامل.

ومن أجمل ما يذكرهُ التاريخ عنه في هذا السياق، أنه كان من أوائل الرجال الذين أجتمعوا بمسلم بن عقيل فور وصوله إلى الكوفة، وبايعوه بصدق على نصرة الإمام الحسين، وهذا الموقف وحده يكشف لنا أن وفاءه لم يولد فجأة يوم المعركة، بل بدأ يوم أن أتخذ قراره الحر بالإنحياز إلى الحق، فالناس غالباً ما يعجبون بمن يقاتل في وقت المعركة، لكنهم ينسون أولئك

الثابتين الذين بدؤوا المسير منذ الخطوة الأولى، عندما لم يكن أحد يعلم كيف ستنتهي الأمور.

ثم جاءت كربلاء وحل يوم عاشوراء، وسقط الأصحاب الأخيار واحداً بعد آخر في ساحة المواجهة، وكان مسلم بن عوسجة من أوائل الشهداء الذين روت دماؤهم الأرض، لكن الذي يجعلني أقف بتأمل عميق عند قصته ليس أستشهاده في المعركة، بل ما حدث في تلك اللحظات الأخيرة المليئة بالوجع والسمو قبل أن ترتفع روحه للسماء.

لقد سقط على الأرض، فأقبل إليه الإمام الحسين، وجاء حبيب بن مظاهر مسرعاً، وكان بين حبيب ومسلم من الصحبة والمودة ما يمتد لسنوات طويلة من العمر.

وفي مثل هذه الأوقات الصعبة، يفكر الإنسان عادة بنفسه وبآلامه، أو يفكر بمصير أولاده من بعده، أو ببيته وأمنياته الكثيرة التي لم تتحقق في دنياه.
لكن ماذا كانت وصية مسلم بن عوسجة في تلك اللحظة الفاصلة؟

لم يوص بمال يملكه، ولم يوص بدار يسكنها، ولم يوص حتى بأهله وعياله، بل أشار بيده المرتعشة نحو الإمام الحسين، وقال لصديقه حبيب بكلمات تقطر صدقاً، أوصيك بهذا أن تموت دونه.

فأي قلب عظيم هذا الذي يحمله بين ضلوعه، وأي إيمان يبلغ بالإنسان إلى حد أن تكون آخر وصية تخرج من شفتيه قبل الموت هي الوصية بإمامه ومبدئه لا بنفسه.

إنها لحظة فريدة تختصر عمراً كاملاً من الثبات واليقين الراسخ، فالإنسان لا يجامل وهو يحتضر، ولا يمثل أدواراً مصطنعة في لحظة الموت، بل ينطق لسانه تلقائياً بما أمتلأ به قلبه طوال سنوات حياته.

وكان قلب مسلم ممتلئاً تماماً بالحسين وبقضيته، ولهذا لم يكن آخر كلامه عن الدنيا ومتاعها، بل كان عن الرسالة وأستمرارها، وكلما قرأت هذه الوصية العظيمة شعرت في أعماقي أنها موجهة إلينا نحن أيضاً في هذا الزمان.

فالسؤال الحقيقي بماذا سنوصي نحن إذا حانت لحظتنا الأخيرة وجاءنا الموت، هل ستكون وصايانا متمحورة حول الأموال التي جمعناها بشق الأنفس، أم عن البيوت والعقارات التي بنيناها، أم أننا سنترك وراءنا قيمة عليا عاش الناس يذكروننا بها ويهتدون بنورها.

إن الإنسان في نهاية المطاف يموت مرة واحدة في عمره، لكن وصيته الأخلاقية قد تعيش من بعده لعشرات السنين.

وهنا تحديداً نفهم لماذا بقي إسم مسلم بن عوسجة حياً ونابضاً، ليس فقط لأنه قاتل ببسالة كأنه شاب في العشرين من عمره، بل لأنه عاش للمبدأ بصدق حتى النفس الأخير.

وهناك فكرة أخرى في سيرته لا تقل أهمية، فقد كان مسلم بن عوسجة من كبار السن، بينما كان في معسكر الإمام الحسين شباب بعمر الورد، ومع ذلك لم يقل أحد من الشيوخ إن هذا دور الشباب الأقوياء، ولم يقل الشباب إن هذا دور الشيوخ المجربين، بل ذابت الأعمار والفوارق كلها أمام قدسية القضية.

وهذه الرسالة تحديداً نفتقدها كثيراً في وقتنا الحالي، فاليوم أصبح كل جيل يلقي بالمسؤولية واللوم على الجيل الآخر، الشباب يقولون بكل إحباط إن الكبار أفسدوا كل شيء بقراراتهم وتخاذلهم، والكبار يقولون إن الشباب جيل طائش لا يتحمل المسؤولية، ويضيع الحق والواجب بين الطرفين.

أما في كربلاء فلم يكن هناك تصنيف على أساس الأعمار، لم يكن هناك شاب متحمس ولا شيخ عاجز، بل كان هناك إنسان يسأل نفسه سؤالاً واحداً ومباشراً ماذا يريد الله مني أن أفعل الآن.

ولهذا السبب إجتمع الشاب والشيخ جنباً إلى جنب تحت راية واحدة، لأن القضايا الإنسانية الكبرى لا تعرف عمراً محدداً،

فالصدق لا عمر له، والوفاء لا عمر له، والشجاعة الحقيقية لا عمر لها.

ولذلك عندما أتأمل سيرة مسلم بن عوسجة في يوم عاشوراء، أرى إنساناً عظيماً يوجه خطاباً صامتاً لكل واحد منا يقول فيه لا تجعل العمر عذراً للتخلي عن رسالتك في الحياة، ولا تجعل التعب والتقدم في السن عذراً لترك الحق والسكوت عن الباطل، ولا تجعل كثرة المتخاذلين من حولك سبباً في ضعف يقينك، فربما يكون آخر موقف تتخذه في حياتك هو الموقف الذي يكتب أسمك عند الله وعند الناس إلى الأبد.

ولعل الإنسان إذا رزق في هذه الحياة بصديق صادق يشاركه هذا اليقين ويشد من أزره، فإن ذلك يعد من أعظم نعم الله عليه، وهذا ما يقودنا تلقائياً إلى رجل آخر، لم يكن مجرد صاحب عادي لمسلم بن عوسجة، بل كان صورة نادرة وفريدة للصداقة الحقيقية التي لا تتغير بتغير الظروف، ولا تضعف بطول السنين، إنهُ

حبيب بن مظاهر الأسدي

ومن أجمل الدروس التي تقدمها لنا كربلاء، أنها لا تعلم الإنسان فقط كيف يكون شجاعاً وثابتاً عند نزول المصيبة، بل تعلمه بالدرجة الأولى كيف يكون وفياً، فالوفاء يعد من أندر وأرقى

الصفات الإنسانية التي يمكن أن يحملها المرء في قلبه، إنه يبدو سهلاً في أيام الرخاء، لكنه يصبح باهظ الثمن وصعب المنال عندما تتغير الظروف وتنقلب الأحوال، ومن أكثر الشخصيات التي تجسد هذا المعنى العالي حبيب بن مظاهر عليه السلام.

كان حبيب من الأصحاب المخلصين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعاش عمراً طويلاً في رحاب معرفة أهل البيت ومودتهم، ولم يكن أنضمامه إلى معسكر الإمام الحسين وليد لحظة عاطفية عابرة، بل كان هذا الإنضمام إمتداداً طبيعياً لطريق فكري وسلوكي سار فيه لعدة عقود من الزمن.

وهنا نتأمل معنى إنساني في غاية الأهمية، فالإنسان قد يبدأ حياته مؤمناً بفكرة صالحة، لكن مرور السنوات كفيل بأن يغير كثيراً من الناس.

فكم من صديق فرقت بينه وبين صديقه الدنيا ومكاسبها، وكم من إنسان بدأ حياته مخلصاً ثم غيرته المناصب والوجاهة، وكم من شخص كان يملأ الدنيا حديثاً عن المبادئ، حتى جاء اليوم الذي أصبحت فيه تلك المبادئ عائقاً حقيقياً أمام مصالحه الشخصية فتنازل عنها، لكن حبيباً كان من أولئك الرجال القلائل الذين لم يغيرهم الزمن ولم تتبدل ضمائرهم، بل على العكس من ذلك، كلما تقدمت به السنون وأشتعل رأسه شيباً، أزداد يقينه رسوخاً وثباتاً، وأرى أن هذا الثبات هو من أعظم

الأنتصارات التي قد يحققها الإنسان في رحلته على هذه الأرض.

فليس الإنتصار الحقيقي أن تبدأ الطريق صحيحاً ومندفعاً، بل الإنتصار أن تنهيه وأنت على نفس النقاء، فالبدء الجميل يتقنه الكثير في بدايات مساراتهم، أما الثبات على المبدأ حتى اللحظة الأخيرة، فهنا يُعرف الرجال الصادقون حقاً.

ولذلك كان حضور حبيب في أرض كربلاء حضور إنسان يريد أن يختم صفحات حياته بنفس النقاء الذي عاش به طوال عمره، وفي هذا الموقف درس بليغ لكل قارئ، فالخاتمة ليست صفحة معزولة عن كتاب العمر، بل هي النتيجة الطبيعية والمنطقية لكل المواقف التي سبقتها.

ولهذا السبب كان حبيب يظهر بشكل طبيعي وتلقائي في كربلاء، لم يتغير أو يتصنع هناك، بل ظهر معدنه الأصيل، لأن الشدائد والأزمات الكبرى لا تصنع أخلاق الإنسان من العدم، بل هي فقط تكشفها وتظهرها للعيان.

ومن أعمق المشاهد الإنسانية التي ترويها لنا المراجع، هي تلك العلاقة الأخوية التي جمعته بمسلم بن عوسجة، فحين سقط مسلم على الأرض، جاء إليه حبيب مسرعاً، فرآه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولو كان هذا اللقاء الوداعي يجري بين رجلين عاديين، لربما أمتد الحديث بينهما بالكلمات العاطفية التقليدية،

لكن اللقاء كان بين رجلين عظيمين عاشا حياتهما كلها من أجل المبدأ والقيمة، فلم يكن حديثهما الأخير عن الدنيا وزينتها، بل تلخصت وصية مسلم لصديقه حبيب في أن يبقى صامداً مع الإمام الحسين ومدافعاً عنه حتى النفس الأخير.

وهنا تحديداً تتجاوز الصورة كونها مجرد تجمع حزين بين صديقين، لتصبح تجسيداً لمعنى الصداقة الحقيقي في أسمى صوره، فالصديق في ميزان كربلاء ليس هو من يشاركك الضحك والترفيه فقط، إنما الصديق الحقيقي هو الذي يعينك ويثبتك على أن تموت على الحق الذي تؤمن به.

هذه هي الصداقة الواعية التي صنعتها وأظهرتها مدرسة كربلاء، وهي صداقة متينة لا تنتهي عند حدود الحياة الدنيا، بل تمتد لترافق الإنسان حتى آخر لحظة من عمره.

وكم واحداً منا يملك اليوم في حياته صديقاً مخلصاً، إذا رآه يبتعد عن الحق أو تزل قدمه، جذبه إليه وأعاده إلى الطريق، وكم واحداً منا يملك الشجاعة ليكون هو نفسه ذلك الصديق الناصح لغيره.

لقد تحولت الصداقة في كثير من الأحيان في زماننا المعاصر إلى مجرد وسيلة لتمضية الوقت، وأصبحت تقاس بمدى التواصل على الإنترنت واللقاءات العابرة، بينما يعلمنا حبيب بن مظاهر أن أعظم صديق ترزق به في حياتك هو الذي يحفظ

لك دينك، ويحمي لك ضميرك من السقوط، ويذكرك بمسؤوليتك إذا نسيت، ويمنعك بقوته من التراجع إذا ضعفت نفسك.

ولعل هذا هو السبب الأساسي في أن الإنسان لا يختار أصدقاءه فقط، بل هو يختار من خلالهم مستقبله ومصيره، فالأرواح تشبه من تصاحب، والصاحب ساحب كما جاء بالمثل الشعبي، والمرء على دين خليله، والقلوب تتأثر تلقائياً وبمرور الوقت بمن تجالس.

ولهذا لم يكن من الغريب أبداً أن يجتمع حول الإمام الحسين أولئك الرجال العظام، فالإنسان العظيم يصنع دائماً حوله عظماء يشبهونه، كما أن الإنسان الفاسد يصنع حوله الفساد والمداهنة.

وهناك معنى آخر في سيرة حبيب يستحق منا وقفة، كان حبيب يستطيع عقلانياً وفقهياً أن يعتذر عن الحضور، فعمره كان كبيراً، وجسده لم يعد قوياً على تحمل ضربات السيوف، ولو أختار البقاء في الكوفة ولم يخرج لما لامه أحد، بل لربما وجد له المجتمع من حوله عشرات الأعذار، لكن أصحاب المبادئ الراسخة لا يبحثون عن الأعذار التي تعفيهم من المسؤولية، بل يبحثون دائماً عن الواجب الذي يمليه عليهم الضمي.

وهذا هو الفرق الجوهري بين الإنسان المبدئي وغيره، فنحن في زماننا المعاصر أصبحنا بارعين جداً في تبرير تقصيرنا

وتخاذلنا عن نصرة الحق، فإذا تخلفنا عن مساعدة مظلوم قلنا ماذا أستطيع أن أفعل وأنا فرد واحد، وإذا رأينا باطلاً ينتشر سكتنا وقلنا الجميع ساكتون فما عساي أن أغير، وإذا تركنا واجباً إنسانياً تعللنا بأن الظروف الحالية لا تسمح بالعمل، حتى أصبحت الأعذار في واقعنا أكثر بكثير من الأعمال الحقيقية.

أما حبيب فلم يكن يلتفت إلى الوراء ليسأل ما هو العذر الذي يعفيني من النهوض، بل كان يوجه نظره إلى السماء ويسأل ما هو العمل الذي يرضي الله مني الآن، وهذا السؤال الواعي هو الذي يصنع الإنسان الحقيقي ويخرجه من دائرة العبث.

ولعل أعظم سؤال تتركه شخصية حبيب بن مظاهر في نفوسنا، يمس واقعنا الحالي، هل بقيت وفياً للمبادئ والقيم الإنسانية التي آمنت بها في أيام شبابي ونقائي؟ أم أن السنين الطويلة والظروف غيرتني وبدلت قناعاتي.
وهل بقيت وفياً ومسانداً لأصدقائي الصالحين؟ أم أنني تركتهم وأبتعدت عنهم عندما أصبحت المصلحة الشخصية والمالية في مكان آخر.

وهل سأكون جاهزاً ومستعداً للتضحية إذا جاء يوم يحتاج فيه الحق إلى موقف شجاع وصريح مثلما فعل حبيب؟ أم سأكتفي بأن أحب الحق وأدعو له بالكلام الجانبي فقط.

إن حبيب بن مظاهر يعلمنا بوضوح كيف لا تشيخ المبادئ الكبرى ولا تهرم، مهما شاخ أصحابها وتقدم بهم العمر، ولعل الإنسان إذا عاش عمراً طويلاً يدافع عن فكرة ونظام قيمي، ثم جاءت لحظة حاسمة أحتاجت فيها تلك الفكرة إلى من ينصرها بصدق فلباها دون تردد، فقد بلغ بذلك قمة الوفاء الإنساني.

لكن كربلاء لم تقدم لنا فقط إنموذج الإنسان الذي بقي ثابتاً ومستقيماً على الجادة منذ البداية كحبيب ومسلم، بل قدمت لنا أيضاً نموذجاً آخر لا يقل روعة، وهو نموذج الإنسان الواعي الذي يملك الشجاعة ليتغير ويصحح مساره في اللحظة الحاسمة التي ظن فيها من كان حوله أنه لن يتغير أبداً، وهنا تبدأ واحدة من أكثر القصص إلهاماً وعمقاً في أرض كربلاء، إنها قصة

زهير بن القين البجلي

ولو توقفت كربلاء في نماذجها عند الرجال الذين كانوا مع الإمام الحسين منذ البداية، لقال بعض الناس تبريراً لتخاذلهم هؤلاء تربوا معه في بيت واحد وعرفوه عن قرب وكان من الطبيعي جداً أن يقفوا إلى جانبه في محنته، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع في كربلاء شاهداً آخر مختلفاً، شاهداً يقول بوضوح إن طريق الحق لا يغلق أبداً في وجه أحد مهما كان ماضيه.

ذلك الشاهد التاريخي هو زهير بن القين البجلي عليه السلام، وقصته هي أقرب القصص الإنسانية إلى واقع الإنسان المعاصر، ليس لأنه كان أفضل الناس منذ البداية، بل لأنه عرف كيف يملك الشجاعة ليصبح أفضل مما كان عليه في الماضي.

وهنا تحديداً تتجلى الحقيقة الإنسانية لزهير بن القين، فقد يظن البعض واهماً أن الصالحين يولدون صالحين بالوراثة، وأن أصحاب المواقف الكبيرة كانوا دائماً على ذات الصورة المثالية التي عرفهم بها الناس.

لكن الواقع يخبرنا بغير ذلك تماماً، فالإنسان قد يقضي سنوات طويلة من عمره بعيداً عن الحقيقة، بل ومجانباً لها، ثم تغيره لحظة صدق واحدة مع نفسه، فيتحول ويصبح أفضل مما كان يتوقعه منه الناس جميعاً، وهذا الأمر هو تماماً ما حدث مع زهير في رحلته الأخيرة، كان يسير في طريقه مع قافلته، ويحاول قدر الإمكان طوال الطريق ألا يلتقي بالإمام الحسين أو يتقاطع معه في طريقه، حتى تذكر الروايات أنه كان إذا نزل الحسين في مكان، حاول زهير جاهداً أن ينزل بقافلته في مكان آخر بعيد.

وكأن شيئاً في داخله كان يخشى ذلك اللقاء الحتمي، ولم يكن ذلك لأن زهيراً يحمل كراهية لشخص الحسين، إنما كانت حجته وتبريره النفسي أن يبقى محايداً في الصراع السياسي

الجاري، فهو بالأصل كان عثماني الهوى والتوجه، ويرى بوضوح أن قضية الحسين لا تمثل قضيته الشخصية ولا تعنيه.

لكن زهيراً كان يتجنب رؤية الحسين هرباً من مواجهة الحقيقة ذاتها، كان يهرب لأنه يعلم أن الحقيقة إذا واجهته وجهاً لوجه، فلن يستطيع بعدها أبداً أن يبقى كما هو مستقراً في حياده البارد.

فكم مرة نؤجل نحن اليوم قراءة كتاب معين لأننا نعلم أنه سيغير قناعاتنا، وكم مرة نهرب من سماع نصيحة صادقة من صديق لأننا ببساطة لا نريد أن نواجه عيوب أنفسنا.

وكم مرة نتجنب في حياتنا لقاء شخص صالح ونقي لأن مجرد وجوده أمامنا يذكرنا بتقصيرنا، فليست كل حالات الهروب التي نمارسها عبارة عن هروب من الآخرين وقسوتهم، بل نحن في كثير من الأحيان نهرب خوفاً من مواجهة أنفسنا.

وكان زهير يعيش هذا الصراع الداخلي العنيف، حتى جاءت تلك اللحظة الحاسمة التي قلبت مجرى حياته كلها، حدث ذلك عندما أضطرته الظروف وحط رحاله بالقرب من رحال الإمام الحسين في ذات المكان، عندها أرسل الإمام الحسين رسولاً يطلب لقاءه بشكل خاص، فرفض زهير وقتها، لكن زوجته الصالحة "دلهم" أصرت عليه بقوة أن يذهب ويستمع على الأقل لكلام إبن بنت رسول الله.

فكان لقاء واحداً دارت فيه كلمات لم يطل المؤرخ في نقل تفاصيلها لنا، لكن أثرها الإنساني بقي نابضاً وممتداً إلى اليوم، دخل زهير على الإمام وهو يحمل قناعاته القديمة وحذره، وخرج من عنده إنساناً آخر تماماً ولد من جديد.

وأجمل ما في هذه القصة الملهمة أن التاريخ لم يخبرنا ماذا قال له الإمام الحسين في تلك الدقائق المعدودة، وكأن الله أراد أن يبقى المعنى الإنساني أكبر من الكلمات المحكية، فليست العبرة هنا بما دار بينهم من حديث، بل العبرة كل العبرة بما حدث من تحول وأهتزاز في أعماق القلب.

خرج زهير من اللقاء وقد تغيرت ملامح وجهه بالكامل، وتغير قراره السابق، وتغير مستقبله ومصيره كله، الرجل الذي كان يتحاشى طوال الأيام الماضية لقاء الحسين ويمقت قربه، أصبح بعد دقائق معدودة مستعداً بكامل وعيه لأن يموت شهيداً بين يديه.

إن هذا التحول النفسي السريع هو قوة الحقيقة الناصعة عندما تصادف قلباً نقياً مستعداً لأن يصدقها وينحاز إليها، ومن هنا أرى أن أعظم ما فعله زهير بن القين في كربلاء ليس أنه قاتل ببسالة يوم عاشوراء، بل الإنجاز الأكبر أنه أمتلك الشجاعة الأخلاقية النادرة ليقول أمام الجميع كنت مخطئاً في قناعاتي، وسأغيرها الآن.

وهذا الموقف يعد من أصعب الأمور التي يستطيع الإنسان البشري أن يفعلها في حياته، فالناس بطبيعتهم يتحملون الخسارات المادية، ويتحملون الآلام الجسدية، لكنهم نادراً ما يتحملون الإعتراف الصريح أمام الآخرين بأنهم كانوا على خطأ.

ولهذا السبب يستمر كثير من الناس في السير في طريق يعرفون في أعماقهم أنه خطأ، وغير مقتنعون به، لكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع والرجوع عنه، أما زهير فقد كان في تلك اللحظة أكبر بكثير من كبريائه الشخصي، أختار الحقيقة بصدق ولم يهتم أبداً كيف سيحكم الناس عليه وعلى تحوله المفاجئ، ولعل هذا الصدق هو أكثر ما نفتقده في زماننا المعاصر، فقد أصبح الإنسان يخشى كثيراً أن يغير رأيه أو يصحح موقفه، حتى لو اكتشفت عيناه الحقيقة واضحة، وذلك لأنه يخاف ببساطة من نظرة المجتمع ومن أن يقال عنه تهكماً لقد كان مخطئاً ومذبذباً.

وكأن الخطأ والتراجع عنه وصمة عار، بينما العيب الحقيقي والقاتل للروح هو أن يعرف الإنسان الحق بوضوح ثم يرفضه ويحاربه من أجل صورته أمام الناس.

إن زهير بن القين يعلمنا بفعله أن تغيير القناعة السابقة عند وضوح الحق ليس علامة ضعف أو هوان، بل هو في حقيقته أعظم صور القوة النفسية، فالإنسان الضعيف هو الذي يبقى

طوال عمره أسيراً وسجيناً لصورته القديمة خوفاً من كلام الناس.
أما الإنسان القوي حقاً فهو الذي يملك الشجاعة الكاملة ليمزق تلك الصورة ويولد من جديد، وهناك موقف آخر في سيرته يكشف لنا عن القيمة الإنسانية العالية لهذه الشخصية.

فبعد أن أتخذ قراره الحر بالإلتحاق بمعسكر الإمام الحسين، لم يعد ينظر إطلاقاً إلى ما سيخسره من وراء هذا القرار، ترك الدنيا ومغرياتها وراء ظهره في لحظة واحدة، ولم يعد يسأل عن مصير ماله وتجارته، ولا عن مكانته الإجتماعية، ولا عن مستقبله الدنيوي.

حتى أنه طلق زوجته لكي لا يصيبها أذى بسببه ولم يكن ذلك قلة حب، بل لأنه أحبها أكثر مما يحتمل وأراد حمايتها.

لقد فعل ذلك لأنه أكتشف بوعيه الشديد أن الإنسان إذا عرف غايته الحقيقية في الوجود، صغرت في عينه تلقائياً كل الأشياء والمكاسب الأخرى.

وكم من الناس في يومنا هذا يعرفون الحق ويميزونه، لكنهم يقفون عاجزين ويقولون مبررين تخاذلهم خائف على وظيفتي، وتجارتي، ومنصبي، والناس من حولي ماذا سيقولون عني.

وكان زهير يستطيع أن يقول كل ذلك ولديه المبررات الكافية، لكنه قال شيئاً آخر مختلفاً بلسان حاله وموقفه وماذا سأقول لله غداً إذا تركت الحق وأنا أعرفه يقيناً.

وهذا السؤال الجوهري والمخيف هو الذي يصنع الرجال الحقيقيين في مواقف الحياة.

ولعل أجمل ما في شخصية زهير بن القين أنها تمنح الأمل المتجدد لكل إنسان يعيش على هذه الأرض، فإذا كان الحر بن يزيد الرياحي يعلمنا بسيرته أن باب التوبة الأخلاقية مفتوح دائماً، فإن زهيراً يعلمنا بوضوح أن باب التغيير الفكري وتصحيح المسار مفتوح أيضاً في كل وقت، وأن الإنسان لا يحاكم في ميزان القيم بما كان عليه بالأمس، بل يحاكم بما أختاره بكامل حريته عندما واجه الحقيقة.

ولهذا السبب قرأت قصة زهير بوصفها رسالة إنسانية حية موجهة لكل إنسان يظن في لحظة يأس أن الوقت قد فات لإصلاح ما أنكسر.

لا، لم يفت الوقت بعد، فما دام في القلب نبض يتحرك، فالطريق إلى الحق ما زال مفتوحاً ومرحباً بالسالكين، وما دام الضمير الإنساني حياً ومستيقظاً، فإن الله يفتح للإنسان دائماً أبواباً جديدة وعوالم من النور لم يكن يتخيلها يوماً.

وهذا هو أجمل ما في مدرسة الإمام الحسين، فهي لا تكتفي بفتح أبوابها وأستقبال أولئك الرجال الذين ساروا معها خطوة بخطوة منذ البداية، بل تفتح ذراعيها على مصراعيهما أيضاً لكل من جاء متأخراً في الوقت، لكنه جاء صادقاً ونقياً في النية.

هذا التسامح والأحتواء العجيب هو ما يجعلنا نصل تلقائياً إلى واحدة من أعظم الشخصيات الإنسانية وأكثرها تأثيراً في أرض كربلاء، إنه ذلك الرجل الذي لم يتأخر كثيراً عن ركب الحسين فحسب، بل كان في بداية الطريق يقف في الجهة المقابلة له تماماً، ويقود الجيش الذي يمنعه من المسير، ومع ذلك كله أصبح إسمه اليوم من أكثر الأسماء خلوداً وتأثيراً في تاريخ الأحرار، إنهُ

الحر بن يزيد الرياحي التميمي

وإذا كان زهير يعلمنا بوضوح أن الإنسان يستطيع أن يغير قناعته الفكرية، فإن كربلاء تقدم لنا نموذجاً لرجل ذهب في تحوله الإنساني إلى أبعد من ذلك بكثير، إنه الحر بن يزيد الرياحي عليه السلام.

وأكثر ما ظلم هذه الشخصية أننا أختصرنا وجودها كله في كلمة واحدة وهي "التوبة"، ولا شك في أن التوبة هي عنوانها البارز، لكنها بالتأكيد ليست كل شيء في تفاصيل هذه القصة الملهمة.

فالحر يمثل في حقيقته صورة الإنسان الذي يعيش في أحيان كثيرة صراعاً داخلياً عنيفاً لا يراه الناس من حوله، صراعاً مريراً يدور بين ما يعرف في أعماقه أنه الحق الناصع، وبين ما يخشى أن يخسره من مكاسب مادية ودنيوية إذا أتبع ذلك الحق وأنحاز إليه.

ولعل هذا الصراع الخفي هو السبب الأساسي الذي يجعل من قصة الحر أقرب القصص الإنسانية إلى واقع كل واحد منا، فنحن في حياتنا لا نستيقظ كل صباح لنختار بشكل مباشر بين معسكر الحسين ومعسكر يزيد، لكننا في واقع الأمر نستيقظ كل يوم لنختار في تفاصيل حياتنا الصغيرة والكبيرة بين الصدق والكذب، وبين الأمانة والخيانة، وبين العدل والظلم، نختار بوعي أو بدون وعي بين نداء ضميرنا الحي، وبين نداء مصلحتنا الشخصي.

ولهذا السبب تحديداً، فإني أرى الحر إنساناً حياً يسكن في داخل كل واحد منا، لقد كان الحر قائداً عسكرياً مرموقاً في جيش السلطة، وكانت أمامه مكانة إجتماعية رفيعة، ومنصب كبير، ومستقبل باهر يطمح إلى نيله جميع القادة العسكريين في عصره، وكان يكفيه من الناحية العملية أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه من القيادة العليا دون نقاش، وأن يقنع نفسه بأنه مجرد جندي مأمور لا يملك سلطة إتخاذ القرار النهائي.

وكم من الجرائم البشعة في تاريخ البشرية أرتكبت خلف هذه الجملة التبريرية الباردة أنا مجرد منفذ للأوامر؟

لكن الضمير الإنساني الحي لا يعترف بهذه الأعذار الواهية والمصطنعة، فالإنسان في ميزان القيم مسؤول مسؤولية كاملة ومباشرة عن خياراته وقراراته، حتى لو كانت الدنيا كلها وكل من حوله يدفعونه بقوة في الإتجاه المعاكس للحق، واللحظة الحقيقية التي بدأ فيها الحر يتحول ويتغير، لم تكن تلك الساعة التي أعلن فيها توبته وأنتقاله إلى معسكر الحسين، بل كانت ساعة أستيقاظ ضميره الإنساني من غفلته.

فالإنسان لا يتغير بشكل صريح عندما يغير مكانه أو ملابسه، إنما يتغير فعلياً عندما يتغير قلبه وقناعاته من الداخل، ولهذا السبب تحديداً أخذ الحر يرتجف وهو واقف بين الجيشين، حتى تعجب من حاله من كان يقف بجانبه من المقاتلين، وقال له أحدهم مستغرباً لو قيل لي من هو أشجع وأقوى أهل الكوفة لما تجاوزت أسمك أبداً، فما هذا الذي أراه منك اليوم من خوف وتردد، وكان جوهر جوابه في تلك اللحظة الفاصلة أعمق من كل الخطب، لقد قال بوعي ويقين إني أخير نفسي الآن بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً أبداً، ولو قطعت وحرقت بالنار.

وعندما نتأمل هذه الكلمات الصادقة، نجد أن كل إنسان منا يعيش في حياته لحظة حاسمة كهذه اللحظة، قد لا تكون

الخيارات أمامه متمثلة بين الجنة والنار بهذا الوضوح الصارخ، لكنها تكون بالتأكيد بين الحق والباطل في مواقفه اليومية.
تكون بين قبول الرشوة المادية وتبريرها وبين حفظ الأمانة والنزاهة، بين الغش السهل والصدق المكلف.

بين السكوت المريح عن الخطأ وبين قول كلمة الحق الشجاعة، تكون بين أن يرضي الناس والمجتمع من حوله على حساب مبادئه، أو يرضي الله سبحانه وتعالى.

وهنا تحديداً في هذه اللحظة تتحدد ملامح شخصية الإنسان الحقيقية وتنكشف قيمته، وأعظم ما فعله الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء، هو أنه إنتصر بقوة على أخطر وأعتى عدو يمكن أن يواجهه الإنسان في حياته كلها، وهو نفسه.

فنحن في كثير من الأحيان نظن واهمين أن البطولة الحقيقية هي أن نهزم الآخرين في المعارك والصراعات والمجادلات، لكن الواقع يخبرنا بأن أصعب المعارك وأشدها ضراوة هي تلك التي تدور في الخفاء ولا يراها أحد من البشر، أن تملك القدرة على أن تهزم خوفك الداخلي، وأن تهزم كبرياءك الأناني، وأن تهزم طمعك في مكاسب زائلة، وأن تهزم صورتك ومكانتك المصطنعة أمام الناس، لأن هذه المعارك الصامتة والسرية هي وحدها التي تصنع الإنسان الحقيقي، فإن من غلب نفسه وهواها، فقد غلب بالتأكيد أعظم عدو له في الوجود، والحر قد فعل ذلك بكفاءة.

لقد كان الحر يستطيع أن يبقى في مكانه مع الجيش القوي، وكان يستطيع أن يؤجل إتخاذ هذا القرار الخطير إلى وقت آخر، وكان يستطيع أيضاً أن يبحث لنفسه عن منطقة يقف فيها محايداً بين الطرفين، لكن أصحاب الضمائر الحية والمستيقظة يعرفون يقيناً أن هناك لحظات حاسمة في العمر لا تحتمل التأجيل ومجاملة الباطل، فالحق إذا تأخر الإنسان عن نصرته والإنحياز إليه كثيراً، ربما لا يجده مرة أخرى في طريقه وتطويه الأيام.

وهناك مشهد إنساني آخر بالغ السمو، لا يمكن تجاوزه أو المرور عليه سريعاً كلما قرأنا تفاصيل هذه القصة، فعندما وصل الحر إلى معسكر الإمام الحسين مطأطئ الرأس خجلاً، لم يقف الحسين أمامه ليعاتبه على ما سلف منه، ولم يقل له مذكراً بمرارة أنت الذي ساهمت بقطع الماء عنا وعن أطفالنا، وأنت الذي ضيقت علينا الطريق في الصحراء، وأنت الذي أوصلتنا بجندك إلى هذه البقعة المعزولة، لم يقل الحسين شيئاً من ذلك العتاب الطبيعي على الإطلاق، بل فتح له سويداء قلبه قبل أن يفتح له ذراعيه مُرحباً ومسامحاً، وكأن الإمام الحسين أراد بهذا الموقف الرفيع أن يعلم البشرية كلها درساً أخلاقياً لا يقل عظمة عن كل دروس يوم عاشوراء.

درساً يقول إن الإنسان لا ينبغي أن يختصر أو يحاكم طوال عمره بناء على أسوأ موقف صدر منه في حياته، وأن الله

سبحانه وتعالى إذا فتح باب التوبة والعودة لعبد من عباده، فلا يحق لأي عبد آخر كائناً من كان أن يغلقه في وجهه أو يعايره بماضيه.

وكم نحن بحاجة ماسة إلى فهم هذا الدرس وتطبيقه في واقعنا المعاصر، فنحن نكثر من مطالبة الناس من حولنا بأن يتغيروا ويصلحوا من سلوكهم، لكنهم إذا تغيروا وأصلحوا بالفعل، ظل بعضنا يعاقبهم بوعي أو بدون وعي على ماضيهم القديم، ونطالبهم بالتوبة والندم، ثم لا نسمح لهم بقلوبنا الصغيرة أن يبدأوا حياة جديدة بنقاء، أما الحسين فلم ينظر في الحر إلى ماضيه العسكري وتقصيره، بل نظر بعين القائد المربي إلى حاضره وإلى جوهر الإنسان الذي عاد بصدق إلى رحاب الله.

وهذا الموقف يمثل الفرق بين منطق الرحمة والأحتواء، ومنطق الإدانة والقصاص، إن الرحمة الحقيقية ترى دائماً بوعي ما يمكن أن يصبح عليه الإنسان من سمو ورفعة في المستقبل، أما الإدانة فلا ترى بأنانية إلا ما كان عليه الإنسان في الماضي وتجمدت عنده، ولهذا السبب تحديداً بقي إسم الحر خالداً ومحترماً، ليس لأنه كان معصوماً من الخطأ والزلل طوال حياته، بل لأنه ببساطة لم يسمح لخطئه وتقصيره أن يكونا نهاية المطاف لقصته.

وهناك سؤال أخلاقي تتركه لنا هذه الشخصية في نفوسنا، ليس هو هل أخطأت في حياتي، فكل البشر بطبيعتهم يخطئون

ويزلون، وإنما السؤال الحقيقي هو هل أملك الشجاعة الأخلاقية الكافية والجرأة كالتي ملكها الحر عندما أكتشف خطئي وتقصيري؟ وهل أستطيع بصدق داخلي أن أقول أمام نفسي وأمام الآخرين كنت مخطئاً، وأملك القدرة على العودة وتصحيح المسار؟ أم أن كبريائي وخوفي على صورتي سيمنعاني من التراجع.

فكم من بيت عائلي تهدم وتشتت شمله لأن أحد الزوجين رفض بعناد أن يقول للآخر بصدق لقد أخطأت في حقك، وكم من صداقة متينة وعمر طويل أنتهت بغتة لأن أحدهما أستكبر ولم يعتذر عن زلته.
وكم من ظلم وقهر أستمر في مجتمعاتنا لأن صاحبه كان يخشى الإعتراف بالخطأ والرجوع عنه خوفاً على وجاهته.

إن الإعتذار الصادق لا يصغر من حجم الإنسان البشري أبداً بل يكبره ويرفع من شأنه في ميزان القيم، والرجوع الشجاع إلى الحق لا يهزم صاحبه أو يقلل من كرامته بل ينقذه ويحرره من سجن الوهم والخطأ.

ولهذا السبب كلما قرأت قصة الحر وتأملت تفاصيلها، لا أسأل نفسي كيف تاب ورجع، بل أسأل نفسي بصدق وأنا أراقب قراراتي كم مرة دعاني ضميري الداخلي إلى الرجوع عن خطأ ما أو موقف خاطئ، فلم أكن بالشجاعة الكافية كالتي كانت عند الحر.

وهنا أدرك بعمق أن كربلاء لا تريد منا مجرد أن نبكي عاطفياً على توبة الحر وشجاعته، بل تريد منا بالدرجة الأولى أن نتعلم من موقفه وسلوكه، لأن قيمة الإنسان في هذا الوجود لا تقاس أبداً بعدد مرات سقوطه وزلاته، بل تقاس بعدد مرات نهوضه من السقوط وتصحيحه لمساره، وبالشجاعة الروحية الكافية التي تدفعه للوقوف من جديد على قدميه بوجه ناصع.

وأن الإنسان إذا إنتصر إنتصاراً حقيقياً على نفسه، أصبح قادراً على الوفاء بكل المبادئ والقيم العليا التي يؤمن بها ويدافع عنها، ومن هذه النقطة الفاصلة من الصدق والأنتصار الداخلي، نصل معاً إلى رجل فريد لم يكن وفاؤه مجرد موقف عابر فرضته ظروف المعركة، بل كان الوفاء هو هويته وحياته كلها، حتى أصبح إسمه مرادفاً حقيقياً لمعنى الوفاء الإنساني، رجل لم يحمل راية الإمام الحسين بيديه الطاهرتين في أرض المعركة فقط، بل حمل تلك الراية بقلبه وروحه ودمه حتى لقى ربه شهيداً قطيع اليدين، إنهُ

العباس بن علي الهاشمي

وبعد أن يتأمل الإنسان في سيرة الحر بن يزيد، يدرك أن الإنتصار الحقيقي في هذه الحياة يبدأ دائماً من الداخل، فالحر إنتصر في لحظة حاسمة على نفسه ومخاوفه وطمعه، لكن

مدرسة كربلاء لا تقف حدودها عند هذا الحد من التحول المفاجئ، بل تقدم لنا نموذجاً إنسانياً فريداً لرجل عاش عمره وسنوات حياته كلها وهو منتصر على نفسه، إنه أبو الفضل العباس بن علي عليه السلام.

وقد إعتاد الناس في مجالسهم وكتاباتهم، كلما ذكر إسم العباس، أن يتحدثوا مطولاً عن قوته البدنية الهائلة، وعن شجاعته وبطولاته في ساحات القتال، وكل ذلك حق لا غبار عليه، لكنني كلما أعدت قراءة سيرته وتفاصيل حياته، شعرت أن أعظم قوة أمتلكها هذا الرجل كانت قوة القلب والضمير، لا قوة الساعد والذراع.

فكم من رجل في تاريخ البشرية كان قوياً في بدنه ويمتلك شجاعة فائقة، لكنه إنهار وهُزم في لحظة ضعيفة أمام رغبة صغيرة عابرة، وكم من إنسان أستطاع بقوته أن يهزم آلاف الرجال في الحروب، ثم هزمته في خلوته شهوة طارئة، أو إغراء منصب رفيع، أو بريق مال زائل، أما العباس فقد كان قوياً بالمعنى الإنساني الأسمى، لأنه كان سيداً ومتحكماً في نفسه، قبل أن يكون فارساً يشار إليه بالبنان في ساحة القتال.

وقد يكون أعمق مشهد يختصر فلسفة حياته ونقاءه، هو ذلك الموقف الذي وصل فيه بمفرده إلى مياه نهر الفرات، وهو مشهد يعرفه ويحفظه كل من قرأ قصة العاشر، لكني كلما أعدت قراءته، أكتشفت فيه معنى إنساني أعمق وأكثر تفرداً.

لقد كان العباس في تلك اللحظة عطشاناً، ولم يكن عطشه عادياً يمكن تحمله، بل كان يسير منذ أيام متتالية تحت شمس الصحراء الحارقة، وكان يقاتل ببسالة ويدفع السهام عن نفسه، وكان فوق ذلك كله يحمل في روحه هم الأطفال والنساء العطاش الذين ينتظرون عودته بفارغ الصبر في المخيم، ثم بعد جهد جهيد وصل إلى الماء، وأصبح بينه وبين إنقاذ حياته وإطفاء عطشه خطوة واحدة وثوان معدودة، مد يده إلى النهر، وغرف من الماء البارد، ورفعه قريباً من فمه المشتعل عطشاً، وهنا تحديداً تتجلى عظمته الإنسانية، ففي تلك الأجزاء من الثانية تذكر أخاه الحسين، وتذكر الأطفال الصغار، وتذكر سكينة، وتذكر كل خيمة من خيام المعسكر وهي تنتظر قطرة ماء واحدة تحييها، فرأى أن من الهوان أن يشرب هو قبلهم، فأرجع الماء من كفه إلى النهر صامداً، ولم يشرب قطرة واحدة.

هذا الموقف لم يكن عاطفة عابرة فرضتها لحظة حزن، إنما كان إعلاناً عن إنتصار الروح البشرية على أعتى الغرائز الفطرية، فالإنسان في طبعه إذا إشتد به العطش والخوف من الموت، لا يفكر غريزياً إلا في النجاة بنفسه أولاً، وهذا أمر طبيعي في كل الكائنات، لكن العباس أثبت بموقفه هذا أن الإنسان يستطيع بوعيه أن يسمو ويرتفع حتى على الغريزة الفطرية، عندما يكون المحرك والدافع وراء سلوكه هو قيمة الوفاء المطلق.

ولهذا السبب بقي هذا المشهد حياً وخالداً في ضمير الإنسانية، تتوارثه الأجيال، ولعلنا في زماننا المعاصر وفي أيامنا هذه، أحوج ما نكون إلى إستيعاب هذا الدرس، لقد أصبح العالم الحديث بكل قنواته ومغرياته يدفع الإنسان بقوة وأنانية إلى أن يقول في كل موطن أنا أولاً، وحياتي أولاً، وراحتي أولاً، ومصلحتي الشخصية قبل كل شيء، ونجاحي الفردي فوق الجميع.

حتى تحولت الأنانية المفرطة عند كثير من الناس في مجتمعاتنا المعاصرة إلى فضيلة تمدح، وإلى حالة طبيعية مقبولة تندرج تحت مسميات براقة وعناوين حديثة مثل البراغماتية والذكاء الإجتماعي، وجاء العباس بن علي بموقفه على نهر الفرات ليقول للجميع، ليس كل ما تستطيع يدك أن تأخذه وتستحوذ عليه ينبغي لك أخذه، وليس كل ما تملكه وتصل إليه قوتك هو حقك الشخصي وحدك دون غيرك.

فالإنسان الحقيقي إنما يقاس في ميزان القيم والأخلاق بما يستطيع أن يتنازل عنه بطيب خاطر من أجل من يحب، ومن أجل المبادئ التي يؤمن بها، والوفاء هو أكثر قيمة إنسانية تراجعت وتآكلت في زماننا الحالي، فالوفاء الصادق بين الأصدقاء أصبح عملة نادرة في المصالح المشتركة، والوفاء بين الأزواج أضحى في أحيان كثيرة هشاً وسريع الإنكسار عند أول عاصفة، والوفاء والبر بين الأبناء والآباء ضعف ولان عند كثير من الناس.

بل إن الوفاء للمبادئ والقيم الفكرية أصبح متغيراً ومتبدلاً مع تغير الظروف والمصالح المادية، أما العباس فقد كان وفياً وفاء مطلقاً وعابراً للظروف في كل تفاصيل وجوده، كان وفياً لأخيه، ووفياً لإمامه، ووفياً لرسالته الإنسانية، من أول نفس تنفسه في حياته، وحتى آخر نفس صعد إلى السماء في كربلاء، ولهذا السبب، فإني أقرأ قصة العباس دائماً على أنه إنسان خرج من المدينة يحمل للعالم رسالة وقيمة، لا مجرد قربة ماء عابرة.

نعم هو كان يحمل القربة بيده الشجاعة، لكن الذي كان يحمله ويحميه في قلبه كان أعظم وأغلى بكثير من الماء، كان يحمل الأمانة الكبرى، وكان يعلم بيقين أن أطفال المخيم ينتظرون خطاه ويستمعون لوقع حوافر جواده، ولعل هذا الوعي بالمسؤولية هو الذي يجعل من مشهد إستشهاده وسقوطه من أكثر مشاهد كربلاء إيلاماً وحزناً في القلوب.

وليس منبع الألم هنا لأنه فقد يديه القطيعتين في المعركة فقط، ولا لأنه سقط شهيداً ومثخناً بالجراح، بل لأن العباس بسقوطه كان يحمل أمل الأطفال الصغار.

فكل طفل في ذلك المخيم المحاصر كان ينظر بطمع وأمل إلى الأفق، منتظراً بلهفة أن يعود عمه العباس بالماء ليروي عطشه، وكم مرة في حياتنا اليومية وعدنا أحداً من الناس بشيء، ثم خذلناه وتراجعنا عن وعدنا عند أول عائق.

وكم مرة وثق بنا إنسان وأمننا على سره أو ماله، فلم نكن على قدر تلك الثقة الكبيرة.

وكم مرة كانت كلمة عابرة منا سبباً في تعلق قلب إنسان بآمال كبيرة، ثم تركناه وحيداً ورحلنا، فالوفاء في حقيقته ليس مجرد كلمة تُقال في المناسبات، الوفاء مسؤولية أخلاقية باهظة الثمن يتولاها الكبار.

ولهذا كله بقي العباس حياً ونابضاً في ضمير الإنسانية ووجدان الناس، لأنه ببساطة لم يكن وفياً ومستقيماً عندما كان الوفاء سهلاً ومريحاً ولا يكلف شيئاً، بل كان وفياً وثابتاً في اللحظة الفاصلة التي كان ثمن الوفاء فيها هو حياته ودمه وروحه.

وهناك معنى آخر بالغ العمق والإخلاص يتجلى بوضوح في تفاصيل شخصيته، إن العباس بن علي كان يملك كل المؤهلات الشخصية والوراثية لكي يصنع لنفسه مجداً شخصياً مستقلاً وتاريخاً خاصاً به ينفرد بذكره، فهو فارس مغوار لا يشق له غبار في المعارك، وهو إبن أشجع العرب علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو صاحب مكانة عظيمة وهيبة في قومه، وكان الناس سيذكرونه ويمجدونه حتماً حتى لو بحث في خروجه عن أسمه الشخصي ومكاسبه.

لكنه لم يفعل ذلك أبداً بل أختار بكامل وعيه وإخلاصه أن يذوب كلياً في وجود وقضية الإمام الحسين، وهنا تحديداً نفهم المعنى الحقيقي للإخلاص، الإخلاص هو أن تعمل وتبذل كل جهدك حتى لو لم يذكر أسمك أحد من الناس أو يقول لك شكراً، وأن تنجح وتصل إلى القمة ثم تنسب الفضل والنجاح كله إلى القضية والفكرة، لا إلى شخصك ونفسك.

فكم من الأعمال العظيمة والمشاريع الأصيلة ضاعت وتلاشى بريقها بسبب حب الظهور والشهوة الخفية للرئاسة، وكم من المشاريع الخيرية فشلت وتفرقت لأن أصحابها تنافسوا بغرور على كتابة أسمائهم في الواجهة قبل أن يتنافسوا بصدق على خدمة الفكرة والهدف، أما العباس فلم يكن يبحث يوماً عن أن يكون متصدراً في الواجهة الشخصية، بل كان جل بحثه وهمه أن تبقى راية الحسين وقضيته مرفوعة وشامخة أمام العالم.

ولهذا السبب وبسبب هذا النكران للذات، أصبح العباس هو نفسه الراية التي يتطلع إليها كل الأحرار، إنها مفارقة عجيبة تكررها السنن التاريخية بوضوح، فمن نسي نفسه وضاع في خدمة الحق خلده الله سبحانه في قلوب البشر، ومن طلب الخلود والشهرة لنفسه مستكبراً نساه التاريخ وطوته الأيام كأنه لم يكن من الأساس.

ولذلك فإن أعظم سؤال وجودي وأخلاقي يتركه العباس بن علي في قلوبنا اليوم ليس هو كيف قاتل ببسالة في المعركة، بل هو

ذلك السؤال الذي يمس ضمائرنا في كل لحظة، هل بقي في داخل نفوسنا وتحت ركام مصالحنا شيء من ذلك الوفاء الأصيل، هل ما زلنا نحفظ بصدق جميل من أحسن إلينا في أيام محنتنا، هل نقف بمسؤولية مع أهلنا وعوائلنا إذا إشتدت عليهم المحن وتكالبت عليهم ظروف الحياة، هل نبقى مخلصين مع أصدقائنا إذا تغيرت الأحوال وتبدلت المصالح، هل نحفظ مبادئنا وقيمنا الإنسانية عندما يصبح ثمن التمسك بها باهظاً ومكلفاً، وهل نستطيع حقاً، مثل العباس، أن نقدم حاجة غيرنا على حاجتنا الشخصية عندما يضعنا الله في موضع الإختبار والإمتحان.

إن الوفاء في حقيقة الأمر لا يقاس أبداً بالكلمات الإنشائية ولا بالوعود الشفهية، بل يقاس بالمواقف العملية على أرض الواقع، والعباس بن علي لم يكتب لنا فلسفة نظرية في الوفاء، بل عاش الوفاء سلوكاً ويقيناً، وترك لنا بفعله حياة كاملة ممتدة نتعلم منها كيف نكون أحراراً.

ولعل أجمل ما في مدرسة كربلاء، أنها لم تعلمنا فقط كيف نموت بشجاعة من أجل المبادئ، بل علمتنا أيضاً بكفاءة كيف نحفظ تلك المبادئ حية ونابضة بعد أن يرحل أصحابها وتغيب أجسادهم تحت التراب، فلو أنتهت فصول كربلاء عند لحظة أستشهاد الإمام الحسين وسقوطه على الأرض، لبقيت مجرد مأساة حزينة وعظيمة تطوى في صفحات التاريخ المنسية، لكن الله سبحانه وتعالى شاء بحكمته أن يجعل بعد الدم القاني كلمة

بليغة، وبعد الشهادة والتضحية رسالة خالدة، وبعد حد السيوف صوتاً هادراً لا تستطيع كل سيوف الظلم أن تقتله، وهنا تحديداً تبدأ فصول إمرأة إستثنائية، هزمت بهدوئها وصبرها وثباتها جيشاً كاملاً ودولة مستبدة، إنها

السيدة زينب بنت علي الهاشمية

ومن المُلفت في مدرسة كربلاء الإنسانية، أنها لم تجعل البطولة الفائقة حكراً على من حمل السيف وقاتل في الميدان.

فلو كانت البطولة تُقاس بالقوة الجسدية وعضلات الرجال وحدهما، لما كان للنساء في هذه الملحمة هذا الحضور العظيم، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم البشرية جمعاء أن هناك بطولات كبرى لا تقاس بقوة الأبدان، وإنما تقاس بقوة القلوب الصادقة والضمائر الحية، ومن هنا تحديداً تبدأ القصة الملهمة للسيدة زينب بنت علي عليهما السلام.

وكثيراً ما يقال إن دور السيدة زينب بدأ فعلياً بعد أستشهاد الإمام الحسين، أما أنا فأرى أن دورها الرسالي لم يبدأ بعد عاشوراء، بل ظهر وتجلى بعد عاشوراء، فالإنسان لا يستطيع أن يتحمل حجم الفواجع التي تحملتها زينب في يوم واحد، ما لم يكن قد بنى نفسه وصاغ روحه عبر سنوات طويلة على الإيمان الراسخ والصبر واليقين الذي لا يتزلزل.

لقد كانت طوال الأيام الماضية ترى بوضوح ما سيحدث، وترى طريق القافلة يقترب من نهايته المحتومة، وترى أصحاب أخيها المخلصين يسقطون مضرجين بالدماء واحداً بعد آخر، كانت ترى أبناء بني هاشم وشبابهم يخرجون إلى الميدان فلا يعودون إليها إلا أجساداً بلا أرواح، كانت ترى إخوتها وأبناء إخوتها وأبناء عمومتها يرتقون شهداء أمام عينيها مباشرة في ساعات معدودة، ثم جاء الدور أخيراً على الحسين.

وتعجز لغات العالم عن وصف تفاصيل تلك اللحظة، كيف يمكن لأخت فارقها كل أهلها، أن ترى أخاها المتبقي منهم وحيداً فريداً بين آلاف الأعداء المدججين بالسلاح، وكيف يمكن لقلب بشري أن يتحمل وطأة ذلك المشهد، بل كيف يمكن لإنسان أن يبقى واقفاً على قدميه ويمتلك وعيه بعد أن يرى كل هذا الخراب من حوله، ولكن زينب بقيت واقفة وثابتة، ولم تبق صامدة لأنها لم تكن تتألم، بل بقيت وواصلت مسيرتها رغم الألم والنزيف الداخلي، وهذا هو الفارق الجوهري بين الأستسلام والصبر، فالصبر لا يعني أن المرء لا يشعر بالمصيبة أو لا يتأثر بفقد الأحبة، بل يعني أن المصيبة الرهيبة لا تملك القدرة على كسر رسالته ولا تهدم إيمانه بها.

وهنا تبرز فكرة مهمة، إن الإمام الحسين وهو يودع أهل بيته ونساءه في اللحظات الأخيرة لم يكن يخشى الموت أو يهاب الحرب، فهو قد خرج من المدينة أول الأمر وهو يعلم يقيناً إلى

أين يسير وما هو مصيره، لكن أكثر ما كان يشغل قلبه الشريف ويوجه فكره، هو ما سيحدث للرسالة بعد رحيله وسقوط معسكره، كان يعلم أن جسده سيسقط على أرض كربلاء، لكن الرسالة الفكرية والأخلاقية التي خرج من أجلها لا ينبغي لها أن تسقط معه في التراب، ولهذا السبب لم يكن الحسين يحتاج بعد شهادته إلى مقاتل، بل كان بحاجة ماسة إلى حامل رسالة يملك صوتاً وبصيرة، وكانت زينب هي ذلك الحامل المؤتمن على الدم.

ومن هنا فلا يمكن الفصل بين الحسين وزينب على الإطلاق، إنهما في حقيقة الأمر صفحة واحدة لكتاب واحد، فهو قد كتب تفاصيل الرسالة بدمه الطاهر، وهي قرأتها على مسامع العالم كله بصبرها وثباتها، هو حفظ المبادئ والقيم بالتضحية والشهادة، وهي حفظتها ونشرتها بالكلمة البليغة والموقف الشجاع، هو أسقط هيبة الظالم وجبروته العسكري في كربلاء، وهي أسقطت هيبته السياسية والإعلامية في قصور الشام، ولو تأملنا صفحات الماضي، لوجدنا أن كثيراً من الثورات الكبرى قد أنتهت وتلاشت بمجرد موت قادتها، لكن كربلاء لم تنته ولم تصير حدثاً عابراً، لأن زينب رفضت بقوة وثبات أن تموت الرسالة بموت أصحابها في الميدان.

ومن الواضح أن معالم عاشوراء صنعتها السيوف والتضحيات، لكن الذي حفظها من النسيان والتشويه هو اللسان والبيان، ولولا خطب زينب البليغة، وموقفها الشامخ، وشجاعتها النادرة أمام

الطغاة في مجالسهم، لربما بقيت كربلاء مجرد حادثة دموية مؤلمة تطوى في كتاب منسي من أحد الكتب التاريخية، لكنها بفضلها تحولت إلى ضمير حي للأمة بأسرها، وهناك موقف آخر يقف الإنسان أمامه مبهوراً لعظمته، لقد وقفت زينب بعد كل تلك المصائب الكبيرة، بعد أن فقدت إخوتها جميعاً، وأبناء إخوتها، وأبناءها، وخيرة أصحاب الحسين، وبعد أن سبيت وأخذت أسيرة وسارت بها القوافل من بلد إلى بلد تحت حراسة الرماح، ومع ذلك كله، وقفت أمام الحاكم المستبد بكل ثبات وقوة، فلم تنكسر روحها، ولم تتوسل عطفاً، ولم يدخل الخوف إلى قلبها، بل تكلمت في مجلسه بلسان القائد المنتصر والواثق بالمستقبل.

وهنا يتضح أن القوة الحقيقية ليست دائماً في الحديد والنار، القوة قد تكمن كاملة في كلمة صادقة، أو في موقف شجاع تمثله امرأة ثاكل فقدت كل شيء في لحظة واحدة، لكنها رفضت بكبرياء أن تفقد كرامتها وعزتها، ونحن اليوم نرى كثيراً من الناس يظنون واهمين أن الكلمة لم تعد تغير شيئاً من الواقع، وأن المواقف لا قيمة لها أمام قوة السلاح والمال، لكن التاريخ يخبرنا بعكس ذلك تماماً، فكم من كتاب صغير غير مسار أمم كاملة، وكم من كلمة صادقة أيقظت شعوباً من سباتها، وكم من موقف شجاع بقي حياً لقرون طويلة، بينما إختفت جيوش جرارة ودول كاملة ولم يبق لها أثر، ولهذا فإن زينب تعلمنا بوضوح أن الكلمة مسؤولية أخلاقية كبرى، وأن السكوت في مواطن الحق قد يكون في أحيان كثيرة نوعاً من الخيانة.

لكنها تعلمنا أيضاً أن الكلمة لا يمكن أن تكون خالدة ومؤثرة في نفوس الآخرين، ما لم تكن قد خرجت بصدق من إنسان عاش بالفعل كل حرف يقوله ويدعو إليه، ولهذا السبب بقيت خطبها حية ونابضة عبر العصور، فهي كانت تتكلم لأنها تحمل الحقيقة في قلبها، وهناك درس إنساني آخر في سيرتها يمس واقعنا، فقد أصبحت المرأة في كثير من النقاشات الحديثة تقاس قيمتها بما تشغله من مكانة ووظيفة، أو بما تملكه من جمال خارجي، أو بما تحققه من شهرة على مواقع التواصل الإجتماعي، أما زينب فقد أعادت بوجودها تعريف السمو للمرأة، حيث أثبتت للعالم أن المرأة تستطيع أن تغير مجرى التاريخ وهي متمسكة بكامل عفتها، ودينها، وكرامتها، وإيمانها، لم تحتج أن تتخلى عن هويتها وأصالتها لتثبت حضورها، بل صنعت مجدها الخالد لأنها كانت نفسها بكل نقاء.

كما أن الأقتداء بشخصية السيدة زينب ليس حكراً على النساء دون الرجال، بل هي قدوة حية لكل إنسان يحمل في قلبه رسالة وقيمة يدافع عنها، لأن كل صاحب رسالة صادقة سيمر حتماً في حياته بيوم مظلم يشعر فيه أن كل شيء قد أنتهى وتحطم من حوله، وستأتيه في تلك اللحظة صورة زينب لتذكرها روحه وتقول له لا، لم ينته شيء بعد، ما دامت الحقيقة حية في قلبك فالطريق مستمر، وإن السؤال الحقيقي الذي تتركه لنا شخصية السيدة زينب في نفوسنا ليس هو كيف صبرت وتحملت، فالصبر نعمة يمنحها الله لعباده، وإنما السؤال هو ماذا سنفعل

نحن إذا وضعنا الله يوماً ما أمام مسؤولية ثقيلة وموقف حاسم، هل سننهار عند أول صدمة، أم سنملك الشجاعة لنحمل الرسالة بمسؤولية، وهل إذا فقدنا في حياتنا شيئاً عزيزاً علينا أو شخصاً نحبه، سنجعل من ذلك الألم وقوداً لنكمل الطريق ونحافظ على قيمنا، أم ننهار ونجعلهُ سبباً للتخاذل.

إن زينب تعلمنا بوضوح أن المصيبة الكبيرة لا ينبغي أن تكون نهاية الإنسان وموته المعنوي، بل قد تكون في أحيان كثيرة هي البداية الحقيقية لرسالته الكبرى في الحياة، ولهذا السبب، كلما قرأنا تفاصيل كربلاء، يتأكد لنا أن البطولة هناك لم تكن حكراً على رجل واحد، ولا نتاج موقف فردي معزول، بل كانت كربلاء عبارة عن منظومة إنسانية وأخلاقية متكاملة الأدوار، فيها الرجل الشجاع الذي قاتل ببسالة حتى النفس الأخير، وفيها المرأة النبيلة التي حفظت القضية وحمت الدم ببيانها، وفيها الشيخ الطاعن في السن الذي لم يمنعه شيبه من العطاء، وفيها الشاب في مقتبل العمر الذي قدم حياته فداء للمبدأ، وفيها الطفل الصغير الذي شهد الحقيقة ببراءته، وفيها الحر الذي أمتلك شجاعة التغيير، وفيها العبد الذي سما بروحه فوق القيود.

وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقول للبشرية من خلال هذا التنوع، إن طريق الحق والعدالة لا يختص بفئة دون أخرى، ولا ينحصر في عرق أو طبقة إجتماعية، فكل إنسان يعيش على هذه الأرض، أياً كان موقعه وقدراته، يستطيع أن يجد لنفسه مكاناً مؤثراً في هذا الركب الإنساني، ومن بين تلك الشخصيات

العظيمة الشاخصة في هذه المنظومة، تقف شخصية فريدة كانت من أكثر الشخصيات هدوءاً، لكنها كانت في حقيقتها من أعظم الشخصيات أثراً في هدم واحد من أقدم وأخطر الأمراض الإجتماعية التي عرفها البشر، وهو مرض العنصرية والطبقية المقيت، إنهُ

جون بن حوي

مولى الصحابي أبي ذر الغفاري، ذلك الرجل البسيط الذي أثبت بدمه وموقفه في أرض كربلاء أن الإنسان لا يعلو بلونه، ولا يرتفع بنسبه وعشيرته، وإنما يعلو ويخلد بما يحمله قلبه من إيمان وكرامة إنسانية راسخة

ومن بين شخصيات كربلاء فإن شخصية جون، مولى أبي ذر الغفاري عليهما السلام، توضح أن الإمام الحسين لم يكن يجمع حلفاء ولا يبني جيشاً عسكرياً بالمعنى التقليدي، بل كان يبني تعريفاً جديداً للإنسان، وربما يمر بعض الناس على إسمه سريعاً في الكتب دون توقف، لأنه لم يكن في ظاهره من أشراف القبائل، ولا من سادة العرب المعروفين، ولا من أصحاب الجاه، بل كان في أصله عبداً أعتق من العبودية، وفي ذلك الوقت، لم يكن المجتمع الطبقي ينظر إلى الموالي بذات النظرة التي ينظر بها إلى سادتهم، وكان لون البشرة كافياً في كثير من الأحيان ليحرم الإنسان من أبسط حقوقه، ومن الإحترام والتقدير الإجتماعي.

لكن مدرسة كربلاء جاءت لتنسف هذا الموروث الجاهلي وتهدم أركانه، فالإمام الحسين لم يكن يسأل الوافدين إليه من أي قبيلة أنت، ولا ما هو لون بشرتك، بل كان يوجه نظره إلى شيء واحد وهو جوهر الإنسان الصادق، وهذا هو عين الإسلام الحقيقي الذي جاء به الرسول محمد، الإسلام الذي لا يجعل الأبيض أفضل من الأسود في القيمة، ولا العربي أرقى من الأعجمي في المرتبة، إلا بما يحمله الإنسان من تقوى وصدق وعمل وأخلاق، ولهذا السبب، لم يكن وجود جون في معسكر كربلاء أمراً عابراً، بل كان وجوده رسالة تقول إن القضية الإنسانية التي خرج من أجلها الحسين ليست قضية عائلية خاصة، وليست قضية قومية متعصبة، بل هي قضية الإنسان أينما كان وحيثما وجد.

واللافت في قصة هذا الرجل، أنه لم يكن ملزماً بالبقاء والقتال، فالإمام الحسين نفسه التفت إليه قبيل المعركة وأذن له في الإنصراف والنجاة بنفسه، وقال له ما معناه، أنت إنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا نريد أن تتحمل معنا اليوم هذا البلاء، فأنت في حل من أمري، وأي إنسان آخر في مكانه ربما وجد في هذه الكلمات فرصة للنجاة بحياته، ولن يلومه أحد على رحيله، فهو ليس من بني هاشم، وليس ممن سيلاحقهم العار إذا عاد إلى الكوفة، بل كان يستطيع أن يعيش بقية عمره في أمان، لكن جون لم يكن ينظر إلى نفسه بهذه الطريقة، لقد كان يعرف أن

قيمة الإنسان لا يحددها أصله العرقي، بل يحددها موقفه الأخلاقي في اللحظات الحاسمة.

فقال للإمام الحسين كلمات بليغة تهز الضمير الإنساني، حيث قال ما معناه أفي الرخاء ألعق قصاعكم وأصيب من نعمتكم، وفي الشدة والضيق أخذلكم وأرحل عنكم، وهذا يوضح الوفاء والصدق، فلم يتحدث جون في موقفه عن رهبة الموت، بل تحدث عن قيمة عليا أصبحت نادرة في زماننا، تحدث عن الوفاء الخالص المجرد من المصالح، فكم من الناس يقتربون منك ويتوددون إليك عندما تكون قوياً، ثم يختفون عندما تحتاج إليهم في شدتك؟ وكم من العلاقات تنتهي بمجرد أن تتغير الظروف المادية وتبدل الأحوال؟ وكم من الناس يملؤون الدنيا حديثاً عن الوفاء لكنهم يكونون أول من يغادر السفينة عندما يصبح البقاء مُكلفاً وضاراً بمصالحهم.

أما جون فقد بقي وصمد في الميدان، لأنه لم يكن متعلقاً بالمنفعة الشخصية الزائلة، بل كان متعلقاً بالقيمة والمبدأ الثابت، وأجمل ما في سيرته، أنه لم يشعر يوماً وهو يعيش في ذلك المجتمع أن لون بشرته يجعله أقل مرتبة من غيره من الرجال، لأنه عاش قريباً من الحسين، والحسين علمه بسلوكه اليومي أن الإنسان لا يقاس بلون جلده الخارجي، بل يقاس بنور قلبه وعمله، وهنا يتجه النظر إلى واقع عالمنا المعاصر، فقد مرت قرون طويلة على تلك الحادثة، ومع ذلك ما زال الإنسان الحديث يكرر ذات الخطأ الجاهلي القديم.

ما زلنا نرى في كل مكان إنساناً يحتقر إنساناً آخر ويسخر منه بسبب لون بشرته، أو بسبب جنسيته ومساحته الجغرافية التي يعيش فيها، أو بسبب لغته ولهجته، أو بسبب فقره وحاجته المادية، أو بسبب طبقته الإجتماعية التي ينتمي إليها، وكأن البشرية، رغم كل ما وصلت إليه من علم وتكنولوجيا، لا تزال حتى اليوم عاجزة عن إستيعاب ذلك الدرس الإنساني البسيط الذي قدمه الحسين وجون قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة على رمال كربلاء، إن العنصرية بجميع أشكالها الحديثة هي جريمة ترتكب ضد معنى الإنسانية ذاته، وليست مجرد كلمة عابرة أو زلة لسان يمكن التغاضي عنها، فحين ينظر أحدنا إلى غيره بنظرة أستعلاء لأنه فقط يختلف عنه في الشكل أو العرق، فإنه بهذا السلوك لا يهين ذلك الإنسان وحده، بل يهين نفسه وإنسانيته بالدرجة الأولى، لأن عينه القاصرة ترى اللون الخارجي ولا تملك البصيرة لترى الروح، وترى الشكل المصطنع ولا ترى القيمة الحقيقية.

ولو كان لون البشرة هو الذي يصنع قيمة الإنسان، لما كان الليل الأسود جميلاً بنجومه، ولو كان الشكل الخارجي هو الذي يحدد رفعة المرء، لما كان القلب البشري الخفي هو موضع نظر الله سبحانه وتعالى وعنايته، إن الله لا ينظر إلى صورنا الخارجية، ولا إلى ألوان بشرتنا، بل ينظر بعين رحمته وعدله إلى قلوبنا وما تحمله من نقاء وإلى أعمالنا وما تقدمه من نفع، وهذا المعنى العالي هو تماماً ما جسده جون بموقفه الخالد، لقد دخل

أرض كربلاء وهو عبد مملوك في أعين المجتمع الطبقي، وخرج من أرض كربلاء وهو سيد من السادة في ضمير التاريخ الإنساني كله، وبقي إسمه يذكر بإجلال مع أعظم وأشرف الرجال عبر العصور، بينما نسي التاريخ وتجاوز أسماء آلاف الوجهاء والملوك الذين عاشوا وملؤوا الدنيا ضجيجاً في زمانه.

والقراءات التاريخية الحقيقية والمنصفة لا تحفظ في سجلاتها الأنساب والقبائل، بل تحفظ المواقف والضمائر، ولا تخلد الألوان والأشكال، بل تخلد الأخلاق والقيم الرفيعة، ولعل هذا هو أعظم إنتصار معنوي حققه جون في حياته، أنه أثبت للبشرية أن الإنسان يستطيع بقوته الذاتية أن يهزم نظرة المجتمع القاصرة إليه، إذا عرف قيمته الحقيقية عند الله وثبت عليها، وكم من طفل بريء في عالمنا اليوم يعيش في مجتمعه وهو يشعر بالنقص، ويظن أنه أقل من غيره بسبب لون بشرته أو شكله، أو بسبب فقره وحاجة عائلته، أو بسبب إعاقة جسدية ولد بها، أو بسبب إسمه وأنتمائه، وكم إنساناً نقياً حطمته كلمة سخرية عابرة وجرحت مشاعره، وكم موهبة عظيمة وعقلاً فذاً دفنتهما العنصرية والطبقية في مهدها، وكم قلباً طاهراً أمتد إليه الحزن لأنه شعر في محيطه أنه غير مقبول فقط لأنه مختلف.

إن جون بن حوي يقف اليوم أمام كل هؤلاء المكسورين ليقول لهم بلسان حاله لا تدعوا الناس ونظراتهم القاصرة يحددون قيمتكم، بل قوموا أنتم بالتعريف عن أنفسكم من خلال مواقفكم

الشجاعة وإخلاصكم، فقد يحتقركم بعض الناس اليوم لجهلهم، لكن موقفاً واحداً صادقاً ونقياً منكم قد يرفعكم عند الله، وعند التاريخ المنصف، أكثر بكثير من آلاف أصحاب الأنساب الخاوية من المبادئ، وإن أعظم سؤال أخلاقي تتركه لنا شخصية جون ليس هو كيف أستشهد في المعركة، بل السؤال الأهم الذي يمس سلوكنا اليومي هو كيف أنظر أنا في حياتي إلى الناس من حولي، هل أراهم كبشر متساوين كما خلقهم الله ونفخ فيهم من روحه، أم أراهم من خلال الصورة النمطية والأحكام المسبقة التي صنعها المجتمع، هل أحكم على قيمة الإنسان من خلال أخلاقه وسلوكه وأمانته، أم من خلال شكله الخارجي ولهجته وجنسيته.

إن مدرسة كربلاء لا تريد منا أن نعجب بجون وبموقفه عاطفياً فحسب، بل تريد منا بالدرجة الأولى أن نقتل في داخل نفوسنا كل شعور بالتكبر والأستعلاء على الآخرين، فالكبر هو أول معصية ورذيلة عصي الله بها في الوجود، حين رأى إبليس نفسه وعنصره الناري، ولم ير طاعة الله وسمو آدم، أما الإمام الحسين فلم يلتفت يوماً إلى لون بشرة جون، بل رأى ونظر إلى طهارة قلب جون وإخلاصه، وهذا الموقف هو تماماً ما يصنعه العظماء الحقيقيون في هذه الحياة، إنهم يرون الإنسان بكامل قيمته، قبل أن يروا كل شيء آخر من مظاهر وشكليات، ولذلك، لم يكن جون يدافع في اللحظات الأخيرة عن شخص الحسين بقدر ما كان يدافع بكل قوته عن الرسالة الإنسانية العادلة التي

يحملها الحسين، والتي حررته من العبودية للبشر وجعلته عبداً لله وحده، وهذا الإنعتاق هو المعنى الحقيقي والكامل للحرية.

وفي كربلاء هناك مشهد فريد لا يحتاج إلى مقدمات نظرية، مشهد إنساني يستطيع أن يفهمه كل بشر بحدسه الطبيعي، إنهُ مشهد

عبد الله الرضيع الهاشمي

ذلك الطفل الصغير الذي لم يكن محارباً، ولم ينطق بكلمة، ولم يختر أن يكون في وسط الصحراء، ولم يعرف معنى الحرب ولا السياسة، كل ما كان يشعر به في تلك اللحظات، أنه طفل عطشان يحتاج إلى قطرة ماء تحييه، وعند التفكر بقصته، نجدها تتحدث عن المأساة الكبرى عندما يفقد الإنسان قدرته الأخلاقية على التمييز بين المقاتل في الميدان وبين الطفل البريء في المهد.

فالحرب مهما كانت قاسية، يبقى لها في العرف الإنساني حدود لا ينبغي تجاوزها، والخصومة مهما إشتددت بين البشر، ينبغي أن يبقى فيها شيء من الرحمة، أما حين يصبح الرضيع هدفاً مقصوداً للسهام، فإن المشكلة لم تعد في قسوة الحرب ذاتها، بل في سقوط إنسانية الإنسان نفسه وتجرده من آدميته، لقد حمل الإمام الحسين طفله الرضيع بين يديه أمام الجيش، ولم يحمل

حينها سيفاً، ولم يطلب نصراً عسكرياً، إنما كل ما طلبه بلغة إنسانية هو قطرة ماء لطفل يذبل كالغصن، لا يعرف حتى لماذا يُحرم من هذا الحق الطبيعي البسيط.

وكم هو صادم للضمير أن يكون الرد على هذا النداء سهماً يخترق رقبة الصغير، وإن كربلاء توضح من خلال هذا المشهد أن الشر في المجتمعات لا يبدأ فجأة بقتل الأطفال، بل يبدأ بصورة تدريجية حين يعتاد الإنسان تبرير الظلم الصغير وتمريره دون أستنكار، فالذي يستطيع بدم بارد أن يبرر ظلماً صغيراً يقع أمامه اليوم، قد يبرر جريمة أبشع في المستقبل، والذي يصمت عن قسوة بسيطة تمارس ضد مستضعف، قد يصمت يوماً ما عن مأساة كاملة، ولهذا السبب كان عبد الله الرضيع عليه السلام بموته أختباراً حقيقياً لإنسانية الجميع، وقد سقط في ذلك الأمتحان كثيرون.

وهذا المشهد الفجيع لم يبق مجرد حادثة تاريخية وقعت في الماضي وأنتهت، بل هو مشهد يتكرر في واقعنا، فكم عبد الله يسقط اليوم تحت أنقاض القصف، وكم أم تحمل طفلها المصاب مسرعة إلى المستشفى فلا تصل به بسبب الحصار والدمار، وكم أب يقف عاجزاً وهو يرى إبنه الصغير يموت بين يديه ولا يملك قطرة ماء نظيفة، أو جرعة دواء شافية، لقد تغيرت عبر السنين أسماء المدن وتبدلت الجيوش، لكن الطفل في كل مكان بقي هو الطفل بضعفه، وبراءته بقيت هي البراءة نفسها دون تغيير، ولهذا، كلما ظهرت صورة طفل يخرج من تحت الركام،

أو جسد صغير غطاه غبار القصف، يتضح أن عبد الله الرضيع ما زال يولد ويعيش في كل حرب تشتعل، وما زال يُقتل في كل أرض ينسى فيها الإنسان ضميره.

وليس المقصود من هذا التأمل تشبيه تفاصيل كل حدث معاصر بكربلاء بشكل حرفي، بل المقصود هو فهم الرسالة الأخلاقية العالمية فيها، فالطفل في كل زمان ومكان، لا ينبغي تحت أي مبرر أن يكون ثمناً لصراعات الكبار وتصفية حساباتهم، ولا يجوز أن يصبح وقوداً لأطماع السياسيين وتجار الحروب، إن أعظم الحضارات ليست هي التي تبني أعلى الأبراج، بل هي التي تملك القدرة على حماية أطفالها ورعايتهم، وأكثر الجيوش شهامة ليست التي تنتصر في المعارك، بل هي التي تمنع بكل قوتها أن يصل أذاها إلى طفل واحد بريء.

وعبد الله الرضيع يوجه سؤاله إلينا، كم طفلاً ما زال العالم يسمح بموته وهو ينظر إليه عبر الشاشات بصمت؟ وكم مرة شاهدنا صور الأطفال الضحايا، ثم أكملنا يومنا وكأن شيئاً لم يكن؟ وكم مرة إعتدنا رؤية الدم المسفوك حتى فقدنا بالتدريج قدرتنا الفطرية على التعاطف؟

إن أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان من مرض روحي ليس هو أن يرى المأساة، بل الخطورة الكبرى أن يعتاد رؤيتها حتى يصبح بليد المشاعر وميت من الداخل، فإذا إعتاد الإنسان رؤية

الطفل المظلوم ولم يعد قلبه يتحرك لنصرته، فليخف على نفسه وإنسانيته أولاً.

وهذا هو الدرس الأعمق الذي يتركه لنا عبد الله الرضيع، وهو أن نحافظ بكل قوتنا على الطفل الذي يعيش بيننا اليوم، أن نحمي براءة الأطفال من التشويه، وأن نرفض الحروب والصراعات التي تجعلهم ضحايا وجسوراً للمصالح، ونربي أبناءنا في البيوت على قيم الرحمة والعدل لا على الأنتقام والضغينة، فالطفولة أمانة إلهية كبرى، ومن يعتد على براءة طفل، فإنه يطعن مستقبل الإنسانية كلها ويهدم قيمها، ومدرسة كربلاء لم تجعل من الطفل رمزاً للأستسلام، بل جعلته شاهداً تاريخياً صارخاً على أن الظلم قد يبلغ من الوحشية حداً لا يبقي لأي متخاذل عذراً في صمته، وسيبقى عبد الله الرضيع حياً في ضمير كل إنسان حر، ما بقي في هذه الأرض طفل واحد يبكي من ألم الجوع أو قسوة الحرب والحرمان، وكان عبد الله الرضيع هو أصغر قربان قدمته كربلاء.

ومن أصغر شهداء كربلاء ننتقل إلى رجل كان يقف في الطرف الأقصى من العمر، عن أكبر شهدائها سناً ومقاماً، إنهُ

هاني بن عروة المرادي

فإذا كان الطفل الرضيع قد علمنا بدمه أن نصرة الحق لا تعرف عمراً صغيراً، فإن هاني بن عروة عليه السلام علمنا بثباته أن الشيخوخة لا يمكن أن تكون عذراً للتراجع عن المسؤولية أو التخلي عن المبدأ.

لقد إجتمع في هذه المنظومة طفل رضيع لم يكمل عامه الأول، وشيخ كبير تجاوز التسعين من عمره وهو يحمل هم الأمة، وكأن هذه المدرسة أرادت أن تقول للعالم إن نصرة المبادئ ليست مرحلة زمنية مؤقتة من مراحل العمر يمر بها المرء ثم ينساها، بل هي مسؤولية الإنسان منذ أولى لحظات وعيه، وحتى آخر أنفاسه.

ولم يكن هاني رجلاً عادياً في الكوفة، بل كان من كبار أشرافها، وصاحب مكانة وهيبة وثروة، وكان سيداً مطاعاً في قومه، وقد بلغ من العمر ما يجعل الإنسان يميل إلى طلب السكينة، والأبتعاد عن الصراعات السياسية والأمنية التي قد تذهب في لحظة بكل ما بناه طوال سنوات حياته، لقد كان يملك كل الأسباب المادية التي تدعوه إلى الصمت، ويملك أمام المجتمع كل الأعذار التي تبرر له الإبتعاد حتى فقهياً، لكن حين وصل السفير مسلم بن عقيل إلى الكوفة غريباً باحثاً عن ناصر، لم يتردد هاني في أن يفتح له باب بيته بمسؤولية، ويمنحه الحماية، وهو يعلم أن هذا القرار لن يمر مروراً عابراً، بل قد يكون آخر قرار يتخذه في هذا العالم.

وهنا تظهر حقيقة النفس البشرية، فقد يستطيع الإنسان الذي لا يملك شيئاً في دنياه أن يضحي بنفسه ويخاطر بحياته بسهولة، لأنه لم يتعلق بالدنيا كثيراً وهي بدورها لم تعطه الكثير، لكن الإمتحان الإنساني الحقيقي يبدأ عندما يكون للمرء ما يخسره، حين يكون له بيت واسع، ومكانة مرموقة، وأبناء وعشيرة تحميه، ثم يطلب منه فجأة أن يضع كل هذا الإرث في كفة، ويضع مبدأه في الكفة الأخرى، هنا يظهر الجوهر الحقيقي للإنسان وتتجلى أصالته، فلم يكن هاني بن عروة بموقفه هذا يبحث عن مجد دنيوي جديد، فقد كان معروفاً، ولم يكن يفتش عن مكانة، فقد كانت مكانته محفوظة في الكوفة، وكان يستطيع أن يحافظ على كل ذلك النعيم بكلمة مجاملة واحدة للحاكم، أو بصمت حيادي، لكنه أختار بوعي كامل أن يخسر ظواهر الدنيا، حتى لا يخسر نفسه وضميره.

ولهذا السبب، ليس أعظم ما فعله هاني إيواء مسلم بن عقيل في بيته، بل أعظم ما فعله، أنه أثبت أن الإيمان لا يُختبر في الرخاء، بل يُختبر عندما تصبح التضحية مُكلفة لدرجة تفوق القدرة، فالزهد ليس أن تترك الدنيا وأنت لا تملك منها شيئاً، بل الزهد الحقيقي أن تكون الدنيا بين يديك، ثم تتركها لأنها وقفت حائلاً بينك وبين كلمة الحق، ونحن نحتاج إلى إستيعاب هذا الدرس في سلوكنا، فكم من إنسان عرف الحق بوضوح، لكنه خاف على منصبه فآثر الصمت؟ وكم من إنسان رأى الظلم يقع على الأبرياء، لكنه أختار التراجع خوفاً على مصالحه؟ وكم من

إنسان كان يستطيع بموقف أن ينصر مظلوماً ويحميه، لكنه قال مبرراً لنفسه لا أريد أن أتورط في مشاكل الآخرين؟

إن نصرة الحق في هذا العالم لا تبدأ في ساحة المعركة الكبرى، بل تبدأ عندما يطرق الحق باب حياتك الخاصة فجأة، فتقرر في تلك اللحظة الحاسمة هل تفتح له الباب رغم الكُلفة، أم تغلقه خوفاً على ما تملك من حطام الدنيا، لقد خسر هاني في حسابات الأرض جاهه العريض، وأمنه الشخصي، ثم خسر حياته عندما قُتل صبراً لأنه رفض أن يشي بمكان ضيفه مسلم بن عقيل، لكنه في مقابل ذلك ربح أن يبقى إسمه حياً، وناصعاً، ومقترناً بالوفاء كلما ذُكرت التضحية من أجل المبادئ، وهاني بن عروة لم يكن وحده من أثبت أن الإيمان الصادق يطلب من الإنسان كل شيء، فقد وقفت في كربلاء أمام رجل آخر، تجسدت الشجاعة في شخصه، حتى إن أعداءه على كثرتهم لم يجرؤوا على مواجهته رجلاً لرجل في ساحة النزال، إنهُ

عابس بن أبي شبيب الشاكري

والتاريخ قد أنصف شجاعته، لكنه لم يركز على قلبه الكبير وبصيرته، فالناس يتحدثون عن بطولته النادرة في عاشوراء، لكنهم قد يغفلون عن حقيقة أن تلك البطولة لم تولد فجأة في ذلك اليوم، وإنما كانت ثمرة يقين عاش معه سنوات طويلة، حيث كان عابس عليه السلام من رجال الأمة المخلصين، هو وقبيلته

بنو شاكر، الذين عرفوا بالوفاء والثبات على المواقف ونصرة آل البيت عليهم السلام، ولم يكن عابس ممن التحقوا بالإمام الحسين في كربلاء فحسب، بل كان من أوائل الوجهاء الذين التقوا بمسلم بن عقيل فور وصوله إلى الكوفة، وأعلنوا ولاءهم والدفاع عنه وعن رسالته، وحين كتب مسلم بن عقيل رسالته إلى الإمام الحسين يخبره فيها ببيعة أهل الكوفة، كان عابس هو الذي تطوع لحمل تلك الرسالة، وقطع بها الصحراء وحده حتى أوصلها بأمان إلى الإمام في مكة المكرمة.

وعابس علمنا بسلوكه أن الطريق إلى البطولة يبدأ عندما يأتمنك الحق على رسالة فلا تخونها تحت الضغط، وعندما يضع الناس ثقتهم فيك فلا تبيعها في سوق المصالح الشخصية، ثم جاءت فصول كربلاء، وهناك ظهرت حقيقته بأكمل صورة، فخرج إلى القتال بحماسة حتى أصبح إسمه يثير الخوف في قلوب خصومه، ولم يكن ذلك لأن جسده كان أقوى من أجسادهم، بل لأن الإنسان إذا إمتلأ قلبه باليقين أصبحت قوته المعنوية أكبر بكثير من حسابات العدة والعدد، والمشهد الذي يملأ النفس دهشة في حياته، أن جيش الخصوم لما عجزوا عن مواجهته ومبارزته، تراجعوا إلى الخلف وأخذوا يرشقونه بالحجارة والسهام من بعيد.

وهذا الموقف يوضح أن الظالمين يخافون من صاحب الحق والوعي أكثر مما يخافون من صاحب القوة المادية، لأن القوة قد تكسر الجسد، أما اليقين فيكسر روح الخوف في داخلهم

ويفضح عجزهم، وحين رأى عابس أنهم يرمونه بالحجارة تراجعاً وخوفاً، خلع درعه الثقيل وخوذته الواقية، ثم اندفع نحوهم حاسر الصدر ببطولة نادرة، لقد فعل ذلك لأنه تجاوز المرحلة المادية التي يفكر فيها الإنسان بحماية جسده، كان يفكر في شيء واحد، أن يبقى وفياً لمبدئه حتى اللحظة الأخيرة، وما الذي يجعل رجلاً واحداً أعزل من الدروع يرعب مئات الرجال المدججين بالسلاح، إنها قوة الروح وعزيمتها، فالإنسان إذا إنتصر على خوفه الداخلي أصبح من المستحيل على أي قوة في الأرض أن تكسر إرادته.

وتذكر الروايات أنهم تكالبوا عليه من كل جانب بعد وكان عددهم مئتي مقاتل ولم يقدروا عليه فرموه من بعيد بالحجارة حتى قتلوه، ثم وقع بينهم نزاع، كل واحد منهم يدعي أنه هو الذي قتله طمعاً في الجائزة، حتى صاح بهم قائد الجيش عمر بن سعد لا تختلفوا، فما قتله رجل واحد منكم، ولكنكم جميعاً أشتركتم في قتله، رجل واحد يحتاج إلى جيش كامل حتى يسقط في الميدان، وهذا الجيش الذي يحتاج إلى عشرات الرجال ليقتل رجلاً واحداً، هو جيش يعترف من حيث لا يشعر بعظمة خصمه وضآلة نفسه، إن عابس لم يهزمهم بقوة سيفه وحده، بل هزم في داخل نفوسهم المهزوزة ذلك الشعور الزائف الذي يجعل الإنسان يظن أن كثرة العدد تكفي وحدها لصناعة النصر.

واليوم في واقعنا، قد لا يُطلب منا أن نقف بأجسادنا أمام جيش حاشد، لكن قد يُطلب منا في مواقف الحياة اليومية أن نقف

بثبات أمام رأي عام مخطئ، أو أمام مجتمع يسير في الإتجاه الخطأ، أو حتى أمام أصدقاء يريدون منا أن نتخلى عن قيمنا الأخلاقية من أجل مسايرتهم، وفي تلك اللحظة الحرجة من الإختيار، لا يكون السؤال كم شخصاً يقف معي، بل السؤال هل أملك من اليقين ما يجعلني أثبت على الحق، حتى لو لم يقف معي في هذا العالم أحد، لقد علمنا عابس الشاكري أن الإنسان لا يصبح قوياً بكثرة أنصاره، بل يصبح قوياً عندما يكون الحق الذي يحمله أكبر من الخوف الذي يسكن نفسه، وإذا كان عابس قد علمنا أن الإيمان يهزم الخوف، فإن

برير بن خضير الهمداني

يعلمنا أن الأمل يهزم اليأس، ففي أصعب ساعات كربلاء، وبينما كان الموت يقترب من الجميع، كان هناك رجل يبتسم ويوجه المزاح العذب إلى أصحابه، وكأن برير عليه السلام كان يرى من لطف الله ما لا يراه غيره، ولهذا السبب برزت شخصية برير بن خضير الهمداني، ولم يكن برير بارزاً لأنه فقط من كبار علماء الكوفة ومن قراء ومفسري القرآن المعروفين، بل لأنه فهم آيات القرآن كما ينبغي لها أن تُفهم، لقد كان القرآن عنده أسلوب حياة يومي ترجمه بفعله، ولذلك حين أحتاج القرآن في تلك اللحظات إلى رجال يحملون قيم الأخلاق ويدافعون عن العدالة، لم يكتف برير أن يقرأه بلسانه وصوته الحسن في المحاريب، إنما قرأه بدمه وحياته كلها، وفي صباح

يوم عاشوراء، بينما كانت السيوف تُشحذ، كان برير يمازح صاحبه عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري بلطف.

فتعجب صاحبه من هذا التصرف في هذا الموقف العصيب وقال له مستغرباً أهذا وقت مزاح؟! وكان سؤالاً طبيعياً بحكم الطبيعة البشرية، فمن ذا الذي يستطيع أن يبتسم والموت يقف شاخصاً أمام عينيه، لكن برير لم يكن يرى المشهد بعين الخوف، بل كان يرى ببصيرته ما بعد هذا المشهد المادي، كان يرى الطمأنينة والرضوان، والطمأنينة لا تعني أن تختفي المصائب من حياتنا، بل تعني أن يبقى القلب ساكناً ومستقراً، مهما أضطربت الظروف وتزلزل كل شيء من حوله، ونحن كثيراً ما ربطنا أستقرارنا النفسي بالظروف الخارجية المحيطة بنا، فإذا نجحنا في أمر مادي إبتسمنا، وإذا خسرنا خطة انهارت أرواحنا من الداخل، وكأن أرواحنا أصبحت مع الوقت رهينة للظروف المتغيرة.

أما برير فقد كان يعلم أن الظروف الصعبة لا تستطيع أن تسرق السلام الداخلي للإنسان، إذا كان هذا الإنسان يعرف بوضوح إلى أين يمضي، ومع من يتعلق يقينه، ولذلك السبب، لم يكن مزاحه في تلك اللحظات أستهانة بالموت، بل كان إنتصاراً حقيقياً عليه وعلى رهبته، لقد أستطاع الموت أن يقترب من جسده، لكنه عجز عن أن يقترب من بصيرته أو يربك روحه، وواقعنا اليوم أحوج ما يكون إلى إستيعاب هذا الدرس، فكم من مريض يصارع الألم وينتظر كلمة طيبة تعيد إليه الأمل؟ وكم

من أب أرهقته متطلبات الحياة حتى ظن أن جميع الأبواب قد أغلقت في وجهه؟ وكم من شاب سدت في وجهه الدروب فظن بيأس أن مستقبله قد إنتهى قبل أن يبدأ؟ إن أكثر ما يقتل الإنسان في هذه الحياة ليس المرض ولا الفقر، بل فقدان الأمل والأنكسار الداخلي، فالإنسان يستطيع أن يصبر على الشدة إذا كان يرى في آخر الطريق هدفاً ونوراً في نهاية النفق، أما إذا أنطفأت شعلة الأمل، فقد يموت المرء روحياً وهو ما يزال يمشي على قدميه.

لقد أبتسم برير في وجه الموت لأنه عرف ببصيرته لماذا يعيش ولماذا يموت، وليس لأن تفاصيل المعركة كانت سهلة، ومضى برير إلى ربه وأستشهد في الميدان، وظل قاتله يحمل خزي جريمته طوال سنوات حياته، حتى قيل بأن زوجته كانت توبخه في بيته بأنه تجرأ وقتل زاهد الكوفة، وفي هذه الرواية حقيقة أخلاقية ثابتة، أن الشر قد يمنح صاحبه مكسباً مادياً عابراً، لكنه لا يمنحه السلام الداخلي والراحة أبداً، ومن سيرة برير يتضح أن العلم لا يقاس بكثرة الكتب التي نحفظها، بل بمقدار ما يغيره هذا العلم في نفوسنا ويهذبه من أخلاقنا وسلوكنا مع الآخرين، ويتضح أيضاً أن الأمل ليس مجرد إنتظار سلبي حتى تختفي الشدة، بل هو القدرة على رؤية لطف الله ورحمته حتى وأنت في قلب تلك الشدة.

وبقيت شخصية برير بن خضير توضح كيف يجعل القرآن الإنسان أقوى من يأسه، وكيف يمنحه في المحن أملاً كبيراً لا

تصنعه مباهج الدنيا، ولا تستطيع قوى الأرض أن تسلبه إياه، ولهذا السبب فإن كربلاء ليست مجرد معركة عسكرية أنتهت وأنقضت تفاصيلها في سنة إحدى وستين للهجرة، إنها في حقيقة الأمر سؤال أخلاقي وإنساني يتكرر في حياة كل واحد منا كل يوم، يتكرر في البيت، وفي العمل، وفي أروقة السياسة، بل إنه يتكرر في أعمق نقطة داخل قلب الإنسان، ففي كل يوم يمر علينا، يقف الإنسان أمام خيارين حاسمين، إما أن يقول الكلمة التي ترضي ضميره، أو يقول ما يضمن له مصلحته الشخصية ومنفعته المادية، إما أن ينصر المظلوم بصدق، أو يبرر للظالم قسوته، إما أن يكون حراً في أختياراته، أو يعتاد التبعية حتى يصبح أسيراً لها.

ولذلك لا يهم أن نسأل السؤال التقليدي من الذي إنتصر في عاشوراء، لأن الجواب واضح بعد مرور قرون، فالذي ينتصر في ميزان القيم هو الذي يبقى حياً وملهماً في ضمير الإنسانية، والذي يهزم هو الذي يحتاج في كل جيل إلى من يبرر أفعاله ويستر سوء صنيعه.

ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أؤمن بعمق أن مسيرة الإسلام الأصيل مرت بمراحل ثلاث كبرى ومترابطة.

حيث بدأت المرحلة الأولى بنزول الوحي الإلهي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحينها تعلم الإنسان كيف يعرف الله سبحانه ويعبده.

ثم جاءت كربلاء لتشكل المرحلة الثانية في هذا المسار، وحينها تعلم الإنسان أن مجرد الإيمان القلبي لا يكفي وحده إذا لم يتحول عند الأزمات إلى موقف أخلاقي شجاع، وأن الدين كقيمة عليا قد يُختزل مع الوقت إلى طقوس وشكليات فارغة إذا لم يجد في الأمة من يحفظ روحه وجوهره الإنساني بالدم والتضحية. وأنا أؤمن يقيناً أن هذه المرحلة الثانية لم تنتهِ فصولها بعد، بل نحن ما زلنا نعيش في وسطها، وما زال سؤال الحسين الرسالي يُطرح على كل جيل يولد بصيغة جديدة تناسب زمانه.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فهي ذلك اليوم الموعود والمستقبل الذي تتحقق فيه العدالة الإنسانية كاملة في أرجاء الأرض، ويظهر فيه الحق ناصعاً بلا خوف ولا مواربة ولا تزييف.

ولست أطلب من القارئ الكريم، بعد أن يغلق الورقة الأخيرة من هذا الكتاب أن يبكي تأثراً، ولا أن يوافقني بالضرورة في رأيي الأخير الذي طرحته، ولا حتى أن يرى شخوص كربلاء وأبطالها بذات العين والطريقة التي أراها أنا بها.

لكن كل ما أرجوه وأتمناه بصدق من هذا الجهد، أن يسأل القارئ نفسه بجرأة سؤالاً واحداً ومباشراً: إذا تكررت ظروف كربلاء وخياراتها الصعبة في زماني ومحيطي، ففي أي صف

سأختار أن أقف؟ فربما يكون هذا السؤال الصادق والبحث عن إجابته، هو جوهر هذا الكتاب كله وهدفه الأساسي.

ولم أعد أهتم كثيراً أن أسأل بفضول أين كانت أرض كربلاء جغرافياً؟ لأنني صرت أسأل نفسي كل يوم بمسؤولية: أين أنا اليوم من قيم كربلاء ورسالتها؟

فالله سبحانه وتعالى لا يطلب من كل إنسان عادي أن يكون بطلاً خارقاً في الميدان، لكنه يطلب منه بوضوح في تفاصيل حياته اليومية البسيطة أن يختار بين الخير والشر، وبين الصدق والكذب، وبين الرحمة والقسوة، وبين نداء الضمير ومغريات المصلحة.

وهذا الإختيار اليومي الحاسم، هو كربلاء الحقيقية الإنسانية التي لا تنتهي أبداً.

فإذا خرجت من قراءة هذا الكتاب وأنت تنظر إلى نفسك وتقيم سلوكك أكثر مما تنظر إلى عيوب الآخرين وتنتقد مواقفهم، فأعلم أن هذا الكتاب قد حقق غايته في نفسك. وإذا جعلك هذا التأمل تتردد طويلاً قبل أن تظلم أحداً من الناس، أو شجعك لتنطق بكلمة حق في موطنها، أو دفعك لشجاعة العودة عن خطأ ما في حياتك كما عاد الحر بن يزيد الرياحي، فإن كربلاء ورسالتها ما زالت حية ونابضة في عروقك.

وستبقى كربلاء حية، في كل زمان ومكان، ما بقي الإنسان إنساناً يحمل في صدره قلباً وضميراً.

وكلما وُلد إنسان على وجه الأرض، وُلدت معه من جديد تلك المعاني التي أبصرت النور هناك في يوم من الأيام، لأنها ليست حبيسة زمانٍ أو مكان، بل قيم تتجدد مع كل ضمير حي

هناك..

حيث يموت الجسد... ويبقى المعنى.